وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
مركز الجامعي بغرداية
معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

البحرية الجزائرية وتأثيرها في العلاقات الجزائرية الفرنسية السياسية (1519/ 1800م)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ حديث

لجنة المناقشة

د/ صالح بوسليم	رئيسا
أ.د: عمار بن خروف	مشرفا ومقررا
أ.د/ حساني مختار	عضوا
أ.د/ فلة موساوي	عضوا
د/ سعيود إبراهيم	عضوا

إعداد:
حمزة إسحاق زيتوني

إشراف:
أ/د: عمار بن خروف

السنة الجامعية: 1432- 1433ه /2011-2012م

مقدمة:

قامت العلاقات الجزائريّة الأوربيّة عامة والفرنسيّة بصورة خاصّة على عدّة موضوعات وقضايا ناجمة عن نشاط البحريّة الجزائريّة وتعاطيها للقرصنة وتبعاتها المتمثلة في الأسرى والتجارة، وتأمين الملاحة البحريّة.

وباعتبار أنّ الجزائر أسّست في الحقبة العثمانيّة لتكون دولة بحريّة بالدّرجة الأولى فكان مفتاح عظمتها في "عصر القرصنة" يكمن في بحريّتها التي كانت توجّه سياستها الخارجيّة وتحدّد طبيعة علاقتها مع الدّول الأوربيّة بما فيها الإمبراطوريات العظمى التي كانت على رأسها فرنسا، ومن هنا تبرز أهمية البحريّة الجزائريّة ودورها في التأثير على العلاقات الجزائريّة الفرنسيّة كموضوع للبحث للمساهمة في فهم دور ومكانة البحريّة الجزائريّة في الحياة السياسيّة الخارجيّة والدبلوماسيّة، لإدراك تأثير ذلك الوجود في علاقات الجزائر الفرنسية.

هذا الموضوع الذي لم يلق العناية الكافية من الباحثين، رغم كونه من العوامل المهمة لاستكشاف خبايا الأحداث السياسيّة التي مرّت بها الجزائر طوال تاريخها الحديث.

قد يكون منطلق هذه الدراسة نابعا من بعض الميول الشخصي قصد التعرّف على الدّور الذي لعبته البحريّة في العلاقات الجزائريّة الفرنسيّة، لكن هذه الرّغبة الشخصية توفرت لها أسس علمية جعلتها ترسخ أكثر. فكان الأسطول هو أحد الأدوات الأساسية التي أنبنى عليها الحكم في الجزائر، ولأسباب متعددة فإن المعلومات عن هذا الأسطول قليلة خاصة خلال القرن الأول من حياة الدولة الجزائرية الحديثة منها بالأخص مدى تأثير البحرية على العلاقات السياسة الجزائرية- الفرنسية عبر الثلاث القرون من حياة دولة الجزائر البحرية، إلا أننا لاحظنا أنّ الدّور الهام الذي لعبته البحريّة الجزائريّة في توجيه العلاقات الفرنسيّة الجزائريّة في القرن السادس والسابع عشر، بدأ يبهت ويخبو ويضمر خلال القرن الأخير من حياة الجزائر البحرية، بالرغم من أنّ الثلاثين سنة الأخيرة وسمت بالتكتّل الدّولي ضدّ البحريّة الجزائريّة التي غدت قضيّة دوليّة.

ولما كان البحث في كل الفترة العثمانية يتطلب وقتا طويلا وجهدا أكبر وتفصيلا دقيقا فقد حصرنا فترة البحث في ثلاثة قرون الأخيرة من قيام دولة الجزائر الحديثة، والتي تبدأ

من سنة 1519م، وهي السنة التي تمثل تأسيس دولة الجزائر، وتنتهي في سنة 1800م، وهي السنة التي تلت تولي نابليون بونابرت منصب قنصل للجمهورية الفرنسية الفتية، وتوقيع معاهدة سلام مع الجزائر.

بالرغم من أن هذا الموضوع لم يلق العناية الكافية من الباحثين إلا أننا وجدنا عددا من الدراسات التي تطرقت لهذا الموضوع ولو بطريقة غير مباشرة، ومن أهم هذه الدراسات نذكر: بوحمشوش، نعيمة: مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر،(1998–1999م). وهي رسالة ماجستير في التاريخ الحديث.

– كمال، حسنة: العلاقات العثمانية الفرنسية في العهد سليمان الثالث (1789–1807)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، (2005/ 2006).

– غطاس، عائشة: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619–1694)، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، (1984–1985).

– مروش، المنور: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، القرصنة الأساطير والواقع، ج2، دار القصبة للنشر،الجزائر،2009م.

يعتبر هذا الإطار الزماني بمثابة الحقل الذي نمت فيه اهتمامات البحريّة الجزائريّة، وتطوّرت معها العلاقات الفرنسيّة الجزائريّة حسب الوضع السياسي العالمي. أما الفترة اللاحقة لها فقد أرجأت تناولها إلى رسالة الدكتوراه خاصة أن تأثير البحرية الجزائرية في العلاقات الخارجية لم يعد كما كان في السابق.

ترجع أهمية هذه الدراسة إلى أنها تتناول موضوعا حيا مع أنه تاريخي، فلازالت أصداؤه تترى، ومثل هذه الموضوعات التي لا تزال متفاعلة مؤثرة في حاجة إلى الكثير من البحث الأكاديمي، الذي يخلص بالعبر والنتائج الصحيحة. فالأحكام القيمية عن الماضي ليس لها معنى سوى كمظهر تعكس اتجاهات الحاضر.

قد يبدو للبعض أن هذه الدراسة فيها إعجاب "بالبطل" وهو هنا البحرية الجزائرية، وإذ كانت تبدو كذلك فهي لا تزيد في نظرنا عن كونه تعبيرا عن الواقع بكل موضوعية لأن الرسالة هدفها تحقيق عمل مثمر نزيه، خال من كل عاطفة ومجرد من كل ميل.

إنّ المتأمل في تاريخ الجزائر من خلال هذا الإطار ألزماني، لا يلبث أن يلاحظ ظاهرة فريدة ومتميزة تميّزت بها الجزائر عن سائر دول شمال إفريقيا، وتتمثل هذه الظاهرة في القوة القاهرة التي أبدتها البحرية الجزائرية وفرضها لإرادتها على البحر المتوسط في القرنين السادس والسابع عشر. ثم تراجع قوة البحرية الجزائرية في القرن الثامن عشر إلى درجة جعلتنا نشعر أنها تعاني من نوع من الضمور والاضمحلال، رغم أنها بقيت تفرض نفسها على واقع البحر الأبيض المتوسط، وتؤثر في سياسته الدولية خاصة في العلاقات الجزائريّة الفرنسيّة.

وإنّ هذه الظاهرة لتدعونا لطرح الإشكالية التالية:

لقد شكّلت الدبلوماسية العنصر الأساسي والفعال في محاولات فرنسا احتواء الجزائر، وكانت الجزائر من الدول التي ارتبطت منذ العصر الحديث بعلاقات متنوعة مع المماليك الأوربية، خاصة المملكة الفرنسية، لدرجة جعلت حكام الجزائر يرون في كثافة هذه العلاقات وتنوعها مؤشرا لعظمة الجزائر وجبروت بحريتها. ولكن إلى أي حد يمكن الأخذ بهذا الطرح؟. وهل حقا كانت البحرية الجزائرية بمثابة آلة دبلوماسية فعالة وظفتها الحكومة الجزائرية في علاقتها مع فرنسا؟.

ثم إذا كانت الجزائر قد ربطت مصيرها طيلة ثلاثة قرون ببحريّتها فكان الغزو البحري نشاطا مركزيّا للدّولة واقتصادها، فإلى أي مدى أثرت البحرية الجزائرية في العلاقات الفرنسية الجزائرية؟ وهل كانت البحرية الجزائرية طرفا غير مباشر في عقد السلام وإعلان الحرب بين البلدين؟. ثمّ هل تمكنت السلطات الجزائرية من اختزال البحريّة الجزائريّة من المعادلة التي أطّرت علاقاتها مع فرنسا في القرن الثامن عشر بعدما بدأ الضعف ينخر جسدها المنهك؟.

إن الإجابة على هذه الإشكالية وغيرها من التساؤلات دفعنا إلى بحث موضوع الدراسة ضمن الأقسام الرئيسية التالية:

مقدمة، وأردفناها بخمسة فصول، كل واحد منها يحتوي على عدد من المباحث عالجنا فيها موضوع الدراسة، علاوة على خاتمة ضمنّاها حوصلة لما خرجنا به من البحث، وألحقنا بذلك مجموعة من الملاحق وفهرس.

أمّا المقدمة فقد عَرفنا فيها بالموضوع وبيَنا أسباب اختياره، وأسس هيكلته، وتجسيمه، إضافة إلى بيان أهم مصادره، ومراجعه، وأهم العراقيل التي صادفتنا في إنجازه.

أمّا الفصل المدخلي الأول وعنوانه " تطوّر أهداف البحرية الجزائرية عبر ثلاثة قرون (1519-1800م)" تطرقنا فيه للتّطور الذي شهدته أهداف البحريّة الجزائريّة واهتماماتها طيلة ثلاثة قرون، غير أنّ هذا التّطور لم يكن بين عشية وضحاها بل كان نتيجة تطوّرات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة شملت الجزائر وكلّ دول البحر الأبيض المتوسط، وعلى هذا الأساس لاحظنا أنّ أهداف البحريّة الجزائريّة مرّت بثلاث مراحل أساسيّة تختلف كلّ مرحلة عن المرحلة التي تليها اختلافا يكاد أن يكون جذريا، غير أنّنا نلتمس بعض المميزات التي تشترك فيها المراحل الثلاث ومن هذا المنطلق عنونا كل مرحلة من هذه المراحل بما يلي:

- المبحث الأول: ويمثل مرحلة "الجهاد البحري" أو "حرب الأرمادات"، وفيها طبع نشاط البحريّة الجزائريّة بطابع ديني محض تجسّد الحرب بين الصليب والهلال.

- المبحث الثاني: ويمثل المرحلة الثانية والتي أطلقنا عليها مرحلة "الغزو البحري" أو "مرحلة المغامرات": وفيها كان الهدف من وراء نشاط البحريّة الجزائريّة القيمة الاقتصاديّة. في ظل ضعف النزعة الدينية.

- المبحث الثالث: ويمثل المرحلة الثالثة، وهي المرحلة التي عنونّاها "مرحلة الدبلوماسية" أو "شرطة البحر" وفيها كان المطلوب من البحريّة الجزائريّة الضغط على الملاحة التّجارية للدّول الأوربّية بغرض دفع المماليك المسيحيّة إلى توقيع معاهدات سلام وتجارة مع الجزائر، تدفع بمقتضاها (الدّول الأوربيّة) إتاوات للحكومة الجزائريّة، وهكذا وجدت الجزائر في هذه الإتاوات مصدر دخل ثابت وآمن بعد جفاف القرصنة، نتيجة التطورات التي شهدها البحر الأبيض المتوسط، وكذا السياسة الخارجية الجزائرية.

أمّا الفصل الثاني: الذي جاء تحت عنوان: "استنجاد البلاط الفرنسي الملكي بالبحرية الجزائرية خلال القرن السادس عشر " فقدمنا فيه الطابع العام الذي طبعت به العلاقات الفرنسية الجزائرية خلال القرن السادس عشر والتي كانت البحرية الجزائرية محورها الرئيس والمرجل الذي جمع بين الجزائر وفرنسا، خاصة أن فرنسا خلال هذه المرحلة

كانت تعاني الضياع والضمور من جراء طموح إمبراطور إسبانيا الذي يهدف إلى قضم المملكة الفرنسية من أوربا، وجعلها قطعة إسبانية. لذلك ارتمت فرنسا في أحضان الخلافة العثمانية لإنقاذها من هذا القدر المحتم عليها من جراء ضعفها وهوانها، فأوكلت الأستانة مهام إنقاذ مملكة فرنسا للقوة الناشئة في الجزء الغربي من حوض المتوسط ألا وهي الجزائر التي أضحت قوية ببحريتها، ولذلك قسمنا هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث أساسية وفق المعايير التي تحكمت في طبيعة العلاقات الفرنسية-الجزائرية.

- المبحث الأول: التحالف الفرنسي- العثماني(1525-1535م).
- المبحث الثاني: استنجاد فرانسوا الأول بالبحريّة الجزائريّة(1535- 1547م).
- المبحث الثالث: استنجاد ملوك فرنسا بالبحريّة الجزائريّة: من هنري الثاني إلى هنري الرابع(1551-1598).

أمّا الفصل الثلث: و عنوناه " آثار البحرية الجزائرية في تذبذب العلاقات الجزائرية الفرنسية في النصف الأول من القرن 17م "وإطاره ألزماني هو (1610-1643م)، رصدنا خلاله طبيعة العلاقات التي ربطت الجزائر بالمملكة الفرنسية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، والتي تميزت بزوال التحالف الذي جمع بين فرنسا والجزائر وتحوله إلى حروب بحرية وبرية من جراء عدم التزام البلاط الفرنسي ببنود المعاهدات التي جمعته مع الجزائر، كما شهد هذه الفترة بداية التطور العسكري الفرنسي البحري الذي منح فرنسا نوعا من الثقة في النفس لمواجهة الجزائر وبحريتها. وعليه قسمنا هذا الفصل إلى المباحث التالية:

- المبحث الأول: تبعات أزمة المدفعين(1610-1619م):
- المبحث الثاني: تبعات مشكلة السفارة الجزائرية(1619- 1628م):
- المبحث الثالث: تبعات مشكل عدم احترام بنود المعاهدة 1628م (1628- 1643م):

أمّا الفصل الرابع: فجاء تحت عنوان " آثار البحرية الجزائرية في العلاقات الفرنسية الجزائرية في النصف الثاني من القرن17م (مرحلة الصدام)" فخصص لدراسة الحملات العسكرية التي جردها لويس الرابع عشر في النصف الثاني من القرن السابع عشر ضد الجزائر لتدمير بحريتها، وتأكيد عظمته في أوربا بمحاولته تدجين الجزائر بعدما أرّقت

وأهانت بحريتها معظم دول وممااليك أوربا، وحطمت غرور أعظم أباطرة أوربا في القرن الذي خلى، لقد حاول لويس الرّابع عشر أن يثبت لأوربّا ّانه الأقوى، وأنّ بإمكانه أن يملي شروطه على الجزائر، وهذا ما عجزت عليه الدول والمماليك الأوربّيّة الأخرى، لذلك حاول الملك الشمس أن يحتل جيجل لتكون مقبرة للبحرية الجزائرية، إلا أنه فشل في ذلك ثم جرد ثلاث حملات عسكرية محاولا منه عبثا إركاع الجزائر وتدمير بحريتها، إلا أنها كانت الواحدة تلوى الأخرى تعود إلى فرنسا تجر معها أذيال الخيبة والهزيمة المخزية. ومن هذا المنطلق قسمنا هذا الفصل إلى ثلاث مباحث أساسية وهي:

- المبحث الأول: حملة الدوق دو بوفور على جيجل 1664م.
- المبحث الثاني: حملتا الأميرال دوكين على الجزائر.
  - 1/ حملة الأميرال دوكين الأولى على الجزائر1682م
  - 2/ حملة الأميرال دوكين الثانية على الجزائر1683م
- المبحث الثالث: حملة الماريشال ديستري على الجزائر 1688م.

أما الفصل الخامس: فجاء تحت عنوان " آثار البحرية الجزائرية في قيام السلام الحذر بين الجزائر وفرنسا. " ويتعلق بالقرن الثامن عشر، حيث تطرقنا إلى دراسة أهم الأزمات التي استفحلت بين البلدين بسبب بحريتهما، وتمكنهما في الأخير من احتوائها دون اللجوء إلى القطيعة. كما يدرس هذا الفصل المساعدات الجزائرية للجمهورية الفرنسية الفتية في أواخر القرن الثامن عشر والتي تمثلت في المساعدات المالية والبحرية عن طريق حماية البحرية الجزائرية لسفن أسطول الفرنسي التجاري المحاصر من قبل أعدائه. لذا قسمنا هذا الفصل إلى ما يلي:

- المبحث الأول: السلام القلق (1689-1793م).
- المبحث الثاني: مساعدات الدولة الجزائرية للجمهوريّة الفرنسيّة الفتية(1793-1798م).
- المبحث الثالث: موقف السلطات الجزائرية من محاولات إنكلترا وفرنسا إقحام البحرية

الجزائرية في صراعهما الدائر في مصر (1798–1800م)

وأنهينا دراستنا بخاتمة ضمنّاها أهم النتائج المتوصّل إليها من خلال البحث في موضوع البحريّة الجزائريّة وتأثيرها في العلاقات الجزائريّة الفرنسيّة (1519–1800م).

إنّ الإجابة على الإشكالية المطروحة وغيرها من التساؤلات، اقتضى الاعتماد على بيبليوغرافيا متنوعة، التي ساعدتنا على إماطة اللثام عن بعض القضايا التاريخيّة، ويمكن تصنيفها على الشكل التالي:

1/ المصادر والمراجع:

المخطوطات المنشورة قليلة ولم تتطرّق كلّها إلى الموضوع بشكل واسع، لكن قيمتها تظل عظيمة، خاصة مذكّرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (1754–1830م) وهو مفيد لدراسة الصراع الدائر في البحر المتوسط بين الجزائر ومختلف الأمم التي ربطتها معها علاقات حرب والسلام. إضافة إلى كتاب: "ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية أو الحملة الفرنسية على مصر والشام" للترك، المعلم نقولا، الذي احتوى على تفاصيل حملة نابليون على مصر. وكذلك كتاب الأغا بن عودة الميزاري وعنوان كتابه: طلوع سعد سعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، حققه يحي بوعزيز. وقد استفدنا من هذا الكتاب في التعريف بالملوك الفرنسيين، وكذا مراجعة حملة دوكين الثانية على الجزائر

أمّا المصادر فهي متنوعة باللغتين العربيّة والفرنسيّة، وتعالج الموضوع في إطار دراسة تاريخ الجزائر في العهد العثماني ومن هذه المصادر نذكر:

Diego De Haédo: Histoire des rois d’Alger traduite par.De Grammont, adaphe Jourdan, libraire.

هذا الكتاب كما يبين عنوانه يتحدث عن حكام الجزائر ابتداء بعروج بربروس إلى مصطفى باشا. فهو يعطي ترجمة تسعة وثلاثين حاكما. كما يتطرق إلى تاريخ الجزائر السياسي خلال القرن السابع عشر، إذا علمنا أنه كان سجينا في الجزائر ما بين 1578و

1581، ولكن لم يتمكن من إخفاء كراهيته للعثمانيين، ولم يكن منصفا لهم إلا في قضايا معدودة.

De Grammont, (H-D): Histoire D'Alger sous la Domination Turque(1515-1830), erest leroux, 2diteur, Paris, 1887.

وهو كتاب مهم من حيث تعمقه في دراسة العهد العثماني في الجزائر خصوصا وأن صاحبه من أنشط الباحثين نظرا لكثرة المقالات التي نشرها خاصة في المجلة الإفريقية ، وقد اعتمد كثيرا على الوثائق العثمانية، واعتمد في الكتاب على رواية هايدو في القسم المتعلق بالقرن السادس عشر

هذا بالإضافة إلى مصادر تمت ترجمتها إلى اللغة العربيّة، وهي أيضا تمثل مادة علميّة هامة مثل " مذكرات كاتكارت "، و"مذكرات شالر"، و"مذكرات تيدينا"، و " مذكرات ستيفن جيمس ويلصن"، و "مذكرات سيمون بفايفر".

كما إعتمدنا على عدد من المراجع باللغتين العربيّة والفرنسيّة، وكان الإطلاع عليها مفيدا للغاية لفهم طبيعة الظروف التاريخيّة والتطوّرات السياسيّة في علاقاتها الخارجيّة التي عاشتها الجزائر، ونذكر من هذه المراجع على سبيل المثال: محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث الذي تناول دراسة تاريخ الجزائر في العهد العثماني وهو كتاب قيم يخدم موضوع البحث . وكذلك مؤلفات جمال قنان: "العلاقات الجزائريّة الفرنسيّة" – "نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث" – " معاهدات الجزائر مع فرنسا " فقد أفادتني كثيرا في البحث، وأيضا الجزء الثاني من كتاب المنور مروش القرصنة الأساطير والواقع، وهو كتاب يتناول دراسة البحرية الجزائرية عبر ثلاثة قرون وقد ساعدني كثيرا في فهم حيثيات البحرية الجزائرية في تلك الفترة. وهناك عدد من المراجع الأجنبية المعرّبة مثل كتاب تاريخ أوربّا الحديث لبرون جفري، وكتاب إيفانوف نيقولاي: الفتح العثماني للأقطار العربية، وكتاب عزيز سامح ألتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، وهو كتاب قيم اشتمل على دراسة مفصلة لتاريخ الجزائر العثماني. وكتاب ألبير دوفال: الريس حميدو، وأيضا الكتاب القيم لأيريل ول ديورانت: تاريخ الحضارة الأوربية "عصر نابليون بونابرت".

كما اعتمدنا على عدد من المراجع المحررة باللغة الفرنسية مثل:

- Plantet, Eugene: correspondance des Deys D’Alger avec la cour de France1579-1700, ministère des affaires étrangères, Paris, 1889.

aux mille canons, E.N.A.L, - Belhamissi, Moulay: Alger la ville Alger, 1990.

- Belhamissi, Moulay: Marine Et Marins D’Alger (1518/1830), T2, B-N-A, 1996.

وأولينا اهتماما في توظيف مقالات المجلّة الإفريقية المتعلقة بموضوع دراستنا باعتبارها تمثل مادة علميّة جيدة لأيّ دراسة أكاديمية.

2/ الدراسات الحديثة:

وتشمل الرسائل لنيل شهادة الماجستير والدكتوراه ، مثل:

أطروحة دكتوراه دولة لتابليت علي: العلاقات الجزائرية الأمريكية، ورسالة الماجستير لزكية، زهرة: التنافس الفرنسي الإنكليزي على الجزائر وموقف الباب العالي منه (1792–1830م)، وكذلك بوحمشوش نعيمة: مساهمة البحريّة الجزائريّة في الحروب العثمانيّة خلال القرن السّادس عشر، وكذلك أطروحة دكتوراه دولة محرّرة باللغة الفرنسية لصاحبها:علي إيزم تواتي.

- Ali, Ismet Touati : Le Commerce Du Blé entre la Régence d’Alger et la France de (1559à 1830), Thèse pour obtenir le grade de Docteur, 2009.,Université Sorbonne

اتبعنا في دراسة موضوع البحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي الذي يهدف إلى تتبع الحقيقة التاريخيّة والنظر إلى ما وراء الحدث التاريخي، وقد حاولنا من خلاله نقد بعض الآراء التي أدلى بها بعض الأجانب المهتمين بتاريخ الجزائر، وذلك بالعودة إلى المصادر والدّراسات العلميّة المتخصّصة، التي تستند إلى منهج علمي دقيق.

كما اعتمدنا المقاربة التاريخيّة لفحص وتمحيص مختلف الحقائق وقوفا عند غثها وسمينها، مرجحين أحيانا بعضها على البعض الآخر انطلاقا من العلل القويّة والحجج الدامغة، التي سمحت بها المراجع والمصادر التاريخيّة التي اطلعنا عليها.

وقد رأينا من المناسب بسط بعض النّقاط والمسائل التي لها علاقة بموضوع البحث ولكن بدون إطناب ولا تطويل ولهذا استطردنا ذكر حملة نابليون على مصر،

تجدر الإشارة في الأخير أنّ البحث في المجال التاريخي يعتبر مساهمة في بناء كيان أمّة بأكملها، ولكن على أهميته تعترضه صعوبات جمّة، فإذا كان بعض المسؤولين في المكتبات أصحاب مبادرات تستحق الثناء والتّشجيع فإنّ كثيرا منهم لا يولون وظيفتهم الحسّاسة أيّة أهمية وهو ما يجعل الباحث يعاني مشاكل عديدة. وأيضا من بين الصعوبات التي واجهتنا تتمثل أساسا في هيكلة موضوع البحث والتحكّم فيها بحيث تكون متكاملة ومتناسقة ومتوازية، وذلك لتداخل الموضوعات وتنوّعها إذ لا يمكن تفسير أيّ حادثة تاريخيّة بعامل واحد حتى ولو كان هذا العامل جزءا من الحادثة التاريخيّة، فهذه الأخيرة تتحكم فيها جملة من العوامل تختلف أهميتها باختلاف مدى تأثيرها في الحادثة التاريخية.

ومن هذا المنطلق فإنّ البحريّة الجزائريّة أثرت إلى حدّ كبير في علاقات الجزائر الخارجية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة، إلا أنّ هذا التأثير لم يكن مطلقا بل كان هناك عدد من العوامل التي أثرت بدورها في العلاقات الجزائريّة الفرنسيّة على غرار البحريّة الجزائريّة ومن هنا تجسّدت الصّعوبة في هيكلة الموضوع. وعليه فإن البحث ينطوي على معالجة عينات من تلك الأحداث التي أثرت على العلاقات الجزائرية الفرنسية إلى جانب البحرية الجزائرية.

وقد تطفلنا في التقاط وجمع ما اشتملت عليه هذه الدّراسة الأكاديميّة، أثناء التنقيب في مختلف المصادر والمراجع والدراسات الأكاديمية.

ولا يفوتنا في الأخير أن أتوجه بجزيل شكري وامتناني إلى، الأستاذ المشرف الدكتور عمار بن خروف ، الذي بفضله أمكن لهذا البحث أن يرى النور في هذا الشكل، والذي تحمّل معنا مشقة هذا البحث وكان مشكاة أنار لنا سبل البحث السديم. وأشكره لما غمرنا به من أفضال كثيرة، فهو الذي شجعنا على مواصلة البحث لاستكمال دراسة تأثير البحرية

الجزائرية في علاقات الجزائر السياسية بالقوى الأوربية من سنة 1800 إلى سنة 1830م كموضوع لأطروحة الدكتوراه إن شاء الله.

كما نترحم على روح الفقيدة "المجاهدة" الدكتورة عائشة غطاس التي تحملت معنا هي الأخرى أعباء هذا البحث، ونقر لها بخالص العرفان والامتنان لما بذلته من مجهود في قراءة جميع الفصول عدة مرات، ولما قدمته لنا من إرشادات وتوجيهات.

كما نشكر أساتذتنا الذين أطّرونا ونخصّ بالذكر، الدكتور عمار بن خروف، الدكتور حساني مختار، الدكتور بن حفري، والدكتور إبراهيم سعيود، مثبتين هنا بأنّ هذا العمل ما كان له أن ينجز على هذا الشكل لولا ملاحظاتهم الهادفة ونصائحهم العالية، والروح العلميّة النزيهة التي كانت لنا خير زاد في درب البحث المضني ومسالكه الوعرة الشاقة.

دون أن ننسى أيضا أن نتوجّه بالشكر إلى كل من قدم لنا يد العون والمساعدة وشجعنا على تحقيق هذا البحث.

قائمة المختصرات

ب تا: بدون تاريخ

ج: الجزء

د.و.م: الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية

ط: الطبعة

ش.و.ن: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

م: التاريخ ميلادي

و. م. أ. ن. أ: المؤسسة الوطنية للإيصال والنشر والإشهار

م.و.ل.ط: المؤسسة الوطنية للفنون والطباعة

E.N.A.L :Entreprise nationale du livre.

RA : Revue Africaine

T : Tome

Vol : Volume

الفصل المدخلي الأول

تطور أهداف البحرية الجزائرية
خلال العصر الحديث
(1519 – 1800م)

أولا/ مرحلة الجهاد البحري "حرب الارمدات"

ثانيا/ مرحلة الغزو البحري أو "حرب المغامرات"

ثالثا/ مرحلة الدبلوماسية "شرطة البحر"

أولا/ تطور أهداف البحرية الجزائرية (1519– 1800):

تطوّرت أهداف البحرية الجزائريّة عبر ثلاثة قرون، غير أنّ هذا التّطور لم يكن بين عشيّة وضحاها، بل كان نتيجة تطوّرات سياسيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة شملت الجزائر وكل دول حوض البحر الأبيض المتوسّط، وعلى هذا الأساس يمكن القول أنّ البحريّة الجزائريّة مرّت بثلاثة مراحل أساسية وهي:

– مرحلة الجهاد البحري: أو "حرب الارمادات" وفيها طُبع نشاط البحريّة الجزائريّة بطابع ديني محض.

– مرحلة الغزو البحري: أو "حرب المغامرات" وفيها وُسم نشاط البحريّة الجزائريّة بوسم اقتصادي صرف.

– مرحلة الدبلوماسية: أو "شرطة البحر" وفيها كانت البحريّة الجزائريّة تراقب تطبيق السّفن الأوربيّة لبنود المعاهدات التي وقعتها بلدانهم مع الجزائر.

قبل أن نتطرق لشرح هذه المراحل كلّا على حدا، وجب أولا أن نعمل على حصر مفهوم القرصنة، هذا النشاط الذي تعاطته البحريّة الجزائريّة طيلة ثلاثة قرون.

– فما هي القرصنة؟ وما الفرق بين القرصان(1) ولص البحر؟.

أُطلق على الحروب البحرية في القرن الخامس والسادس عشر لفظ القرصنة، هذا المصطلح الذي يعرفه المؤرخ الجزائري ابن أشنهو بما يلي: " القرصنة هي كلمة من اختراع الإفرنج ... فلا يوجد لهذا المصطلح مرادف في اللّغة العربيّة إنّما استعربت في القرن التاسع الهجري وكان

يسمّى من يتعاطاها قرصانا وهم معروفون عند ابن خلدون بغزاة البحر ،وقد مهر فيها

---

(1) القرصان هو من يتعاط القرصنة، ويُستعمل مفردا وجمعا، ويجمع أيضا على قراصين وقراصنة، واشتقوا من القرصنة فعلا وهو قَرْصَن على وزن فَعْلَل. أنظر:

– نور الدين، عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر2006، ص 63.

الأتراك والجزائريون وخصوصا منهم أهل بجاية، والجزائر، وشرشال، ووهران"[1]

يُعتبر البحر المتوسط مهد القرصنة البحريّة، فالقرصنة البحريّة قديمة قدم التاريخ[2]، فلم تكن إذا وليدة القرن السادس عشر، بل تعود جذورها إلى أبعد من ذلك بكثير، إلاّ أن ازدهار نشاط القرصنة. بدأ منذ القرن السادس عشر، وارتبط بتطوّر السّفن الملاحية[3]،

---

(1) عبد الحميد، بن أشنهو: الدور الذي لعبته الجزائر في القرن السادس عشر بالبحر المتوسط،/في/ الأصالة، العدد 8، ص 296.

(2)كورين، شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1541– 1510م)، تعريب جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 49.

(3) احتوت كتب اللغة على كلّ أنواع المراكب البحريّة المعروفة آنذاك وعلى خصائصها وحجمها وحمولتها وطرق استخدامها، فذكرت:

المركب– الجفن (قيل لم يكن في بلاد الأندلس أعظم من المرية أجفانا وحركة في البحر وقد انتهت أجفانها وبلغت المائية ولم تبلغ مدينة ما بلغته في هذا القرن– الزورق – القارب – السفينة (ويقال لها البيونيات في الأندلس) – الحراقة (تستعمل للنار اليونانية (feu gregeois) قيل سمّيت كذلك لأنّها تقشر وجه الماء وقال الطاهر بن الحسين:

عجبت لحراقة ابن الحسين * لا غرقت كيف لا تغرق

وبحران من فوقها واحـــــــد * وآخر من تحتها مطبـــق

وأعجب من ذلك أعوادهـــا * وقد مسّها كفّ لا تورق)

– القطعة (جمع قطع وقطائع)– الشيطان (الشياطين = الغربان)– الجارية (جمع جوار)– الشطية (مركب كبير في مصر لنقل الجنود والبضائع)– اللّوح– الفلك (فمن المذكر المفرد قوله تعالى: "في الفلك المشحون ...". ومن المفرد المؤنث قوله تعالى : " والفلك التي تجري في البحر". ومن الجمع قوله تعالى :" حتى إذا كنتم في الفلك وجرينا بهم ... ".– الصاحبة– بنات الماء– القرقور(مركب ضخم بقلوع مربعة استخدمه المجوس إثر غاراتهم على الأندلس)– الزو (مركب للنزهة في النهر الكبير بشبه الجزيرة)– شختور (جمع شخاتير) للنقل– شلندي (مركب مسطح). الجلبة التي ركبها الرحالة ابن جبير من عيذاب (جنوب مصر) إلى جدّة قاصدا الحجّ فقال:" والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الإنشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة إنّما هي مخيطة بأمراس (الأطناب والحبال) من القنبار وهو قشر جوز النار جيل يدرسونه إلى أن يخيط ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ويخلّلونها بدرس من عيدان النخل. فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ... ومقصدهم بدهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ولذا لا يصرفون فيه المركب المسماري. أنظر:

– مولاي، بالحميسي: البحر والعرب في التاريخ والأدب، م–و–ل–ط، الجزائر، 2005م، ص (11، 12).

وازدهار التجارة البحريّة، وتحوّل الحرب الدينيّة بين الهلال والصليب من الحروب البرّيّة إلى الحروب البحريّة ضمن إطار المبدأ الذي ينصّ على أنّه "من يملك البحر، يملك البرّ".

إلا أنّ للقرصنة قوانين تحكمها، ونظامها الدّولي الذي يؤطّرها. وفي هذا يقول فرنان بروديل «... فالقرصنة ظاهرة قديمة في المتوسط لكنّها تختلف عنها في الأطلسي، في أنّ الأولى لها قواعدها وأعرافها، وتقاليدها، إذا كانت تعقبها مفاوضات بين الدّول والمدن التي كانت تقوم بينها إلى تبادل القرصنة صلاتَ»[1].

يضيف بورديل قائلا: «... كانت القرصنة شكلا من أشكال الحرب، وهي أنّ القرصنة لم تكن نشاطا فرديا، بل نشاط جماعات وشبكات تشترك المدن والدول في تنظيمها، الأمر الذي يؤكّد أنّها كانت من طباع ذلك الوقت ومن مزاياه...». [2]

لقد كان القراصنة ينشطون بطريقة قانونية، معروفون ومدفوعون من طرف حكوماتهم، إذ كانوا يحصلون على تسريحات مكتوبة قانونية، المعروفة باسم "رسالة العلامة"، والتي تسمح لهم بمجابهة السفن التّجارية للدّول الأعداء، وفي واقع الأمر كانت القرصنة تُعتبر بمثابة انتفاضة للأفعال غير العادلة التي يمارسها لصوص البحر. إذ أنّها كانت تسعى من أجل تقليص العنف في البحر.[3]

لقد كانت أول رسالة مكتوبة ومرّخصة من طرف فيليب أوغست في ماي من سنة 1206م، والتي تسمح للقراصنة بالتّجول في البحر برعاية الملك. «إذا تعود أصول القرصنة إلى القرن الثالث عشر ميلادي، لكنّها بلغت أوجّ نشاطها في الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى غاية القرن التاسع عشر ميلادي في حوض البحر الأبيض المتوسط».[4]

---

(1) المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر، لبنان، 1993، ص 151.

(2) نفسه، ص 152.

(3) Xavier Labat, Vincent : « La course et corso en méditerranée du XVI, au XIX siècle » Revue Clio, Août. 2002. P1 , www.Clio.fr.

(4) IBID, P 1

أما المؤرخة كورين شوفالييه تعرف القرصنة، بأنها تلك "الحرب المشروعة تماما بواسطة بيان صريح للحرب أو ترخيص يتم بموجبه تجهيز سفينة حربية، جوازات سفر، لجان وتعليمات، والقرصنة لها قوانينها وأنظمتها وعاداتها الحية وتقاليدها"(1).

فالقرصنة انتفاضة ضد لصوص البحر، وتعتبر القرصنة ولصوصية البحر شكلا ظاهرا من بداية القرن الرّابع عشر إلى بداية القرن التّاسع عشر، وكانا من أكبر النشاطات البحريّة في الحوض المتوسط، تغذيهما التجارة البحريّة النامية في تلك الفترة، كما شملت القرصنة ولصوصية البحر كلاّ من المسيحيين والمسلمين على حد السواء.(2)

لكن ما الفرق بين القراصنة ولصوص البحر؟

يرى دانيال بونزاك (Daniel Panzac) أنّ هناك فرق كبير بين لصوص البحر، والقراصنة: « فلصوص البحر، لا وفاء ولا إخلاص لهم لأيّ دولة أو حكومة، فهم يعملون لمصلحتهم الشخصية، ولا قانون يحترمونه أو يحتكمون إليه، أمّا القرصنة التي يمتهنها الجزائريون يتوازى وجودهم مع الإيمان والإخلاص واحترام القانون فهم بمثابة شرطة البحر(3).

إنّ القرصنة تعتمد على قاعدة أساسية هي:

---

(1) المرجع السابق، ص 49

(2) Manan, Robet : « Salvatore Bono, La corsari barbareschi preface de H.de felice ».IN, Revue, Annales économies, sociétés, Civilisations, Volum22, N° 05, Paris, 1927, P 1133.

(3) هناك بعض الدّراسات التي لا تزال تعتبر أنّ القرصان هو نفسه لصّ البحر من أمثال ذلك الدراسة التي جاء بها نور الدين، عبد القادر،حيث يقول " القرصنة هي قطع البحر واللصوصية فيه، والقرصان من يتعاطاها، ... " أنظر:
– نور الدين، عبد القادر: المرجع السابق، ص 63.

القرصنة هي نوع من الوجود العسكري المعتمد من طرف المغاربة والجزائريّين على وجه الخصوص، ضدّ التواجد المسيحي، والذي يعطي الطابع الديني والقانوني للهجمات، وهي عبارة عن كيان قويّ يستطيع وضع قوانينه والمحافظة على تطبيقها».[1]

أما المؤرّخ الإيطالي سالفاتوري بونو (Salvatore Bono) فيعرّف القرصنة بما يلي: «هي الحرب بين المسحيين والمسلمين، فالقرصان هو الذي يمارس القرصنة لحساب الحكومة وبدعم منها، وقد كان يحتلّ مكانة قانونية على الصعيد الوطني والدولي. بالمقابل لصّ البحر يقوم بنفس الأعمال والنشاطات: (الاستيلاء على السفن، البضائع، الرجال)، ولكن دون تشريع، أو قواعد؛ فلصوص البحر لا يترددون في مهاجمة سفن البلدان الصديقة أو حتى سفن بلدانهم: وبهذه الطريقة هم خارجون عن القانون»[2]. فالقرصنة إذا ليست عملا خاصا بل هي عمل الدولة[3].

ويرى المؤرّخ الأمريكي جون –ب– وولف: "أنّ القرصان (ويقصد به لص البحر) هو الشخص الذي كان حرا في النّهب، ولا يعترف بأيّ سلطة فوق إرادته الخاصة. فقد كان، يهاجم، بدون تمييز، سفن أيّة دولة. وكان هدفه الوحيد هو النّهب، ولكن رياس البحر (ويقصد بهم القراصنة) كانوا أشخاصا موكلين من غيرهم للقيام بهذه المهمة. ولم يشنوا حربا إلاّ على أعداء أميرهم أو ربّهم. وكانت مهمة القرصان مثل مهمة لصّ البحر، عبارة عن قيام بعملية مغامرة أكثر مما هي مهمة للصالح العام، غير أنّ القرصان كان يقوم بمهمة تعطي طابع الشرعية لنشاطه، ثم أنّه كان يتصرف في غنائمه بطريقة ينظّمها الأمير التابع له".[4]

---

(1) Daniel, Panzac : « Les Esclaves et leurs rançons chez les barbaresques (fin XVIII- Début. XIX siècle),IN, Revue, Cahiers de la Méditerranée. Vol 65, 2002, P1.

(2) Lafi, Nora : « Salvatore, Bono, Corsari nel mediterraeo. Christianie musulmani fra, Guerra, Schiavithu commercio »IN, Revue du Monde musulman et de la méditerranée. Volume 68.N° 01, 1993. P300.

(3) كورين، شوفالييه: المرجع السابق، ص 49.

(4) جون،ب، وولف: رياس البحر، تعريب أبي القاسم سعد الله /في/ مجلة الدراسات التاريخية، العدد الثالث، الجزلئر، 1987م، ص43.

تجدر الإشارة هنا أنّه عبر التاريخ اقترن تواجد القرصنة بلصوصية البحر، كما أنّه لا يمكن في العديد من الحالات خاصة في القرن السادس عشر التفريق بين القراصنة ولصوص البحر، إذ أنّ بعض القراصنة كانوا يتحوّلون فجأة إلى لصوص بحر، كما كان العديد منهم ينضمّون طوعا لبحريات الدّول ليعملوا فيها كقراصنة؛ وكانت البحريّة الجزائريّة من أهمّ البحريات في المتوسط التي استقطبت العديد من لصوص البحر ومن العلوج.

لم تشمل حرب القرصنة الصراع البحري بين المسلمين والمسيحيين فحسب بل كانت القرصنة تدور أيضا بين المسحيين أنفسهم.

لقد سلّط الكثير من المؤرّخين الغربيين الأضواء على بحريات شمال إفريقيا ولاسيما البحرية الجزائرية، ليس لأن قراصنة الجزائر كانوا أنشط وأبرع القراصنة فحسب، بل لأنّ نشاطهم كان موجها ضدّ السّفن الأوربّيّة وسبّبوا الكثير من المتاعب والخسائر إلى أوربا المتوسطية، ونقلوا عنهم الكثير من الأسرى إلى موانئ شمال إفريقيا إلى درجة أنّ الجزائر أصبحت تلقب "بعاصمة العبيد البيض" نظرا لكثرة العبيد الأوربّيين المسحيين في الجزائر[1].

لقد دفع هذا الوضع الذي فرضته القرصنة الجزائريّة في المتوسط وعلى الدّول الأوربية بالمؤرّخ إكسير إلى القول: «لقد اتسمت علاقات الجزائر مع الدّول المسيحية بإهانة الأمم المتمدّنة أمام زعيم القراصنة[2] (يقصد بذلك الجزائر) » إلاّ أنّ الواقع في

(1) محمد خير، فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الإستعمار الفرنسي، ط$_2$، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1979م، ص 89.

(2) لوسات، فلنري: المغرب العربي قبل إحتلال الجزائر (1790 – 1830) تعريب حمادي الساحلي، سراس، للنشر، تونس 1994م، ص 152.

حوض المتوسط هو ما ذكره المؤرّخ الفرنسي بروديل حين قال: «كان هناك أكثر من جزائر مسيحية، كمالطا، وبيزا، وليفرون»[1].

لم تشمل حرب القرصنة الصراع البحري بين المسلمين والمسيحيين فحسب بل كانت القرصنة تدور أيضا بين المسحيين أنفسهم، وعليه لم تكن القرصنة حكرا على الجزائرين فحسب بل كانت كل الأمم تتعاط القرصنة، إلاّ أنّ هناك دول أبدعت وأتقنت القرصنة كبحرية الجزائر، وفي هذا يقول المؤرخ الأمريكي وليام سبنسر:

«... جعلت القرصنة من الجزائر قوّة قاهرة في المنطقة الغربية للبحر الأبيض المتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فلم تكن مدينة الجزائر مرعبة للأمم والشعوب المسيحية أكثر من رئيسها الأسمى، الباب العالي فقط، ولكنّها استمرت توحي بجو من الإجبار والرّهبة خلال فترة طويلة لتدهور القوّة العثمانية» .[2]

لقد كانت الجزائر من أهمّ الدّول التي قامت ونشأت على القرصنة، كما صُنفت واعتبرت من أقوى الدّول التي تعاطت هذا النشاط[3]؛ لقد تطلب وجود الجزائر كدولة قرصنة، تسيرا قويّا في سبيل البقاء وذلك لأنّها وُلدت وسط الصراع المملوء بالمغامرات الخارجية المستوحاة من عقيدتهم.[4]

وعموما فقد كانت القرصنة جزءا لا يتجزأ من مجموع المتغيرات السياسية والتقنية والتجارية، لقد جمعت القرصنة بين السيئ والحسن الذي كان يربط ويجمع بين ضفّتي البحر الأبيض المتوسط خلال التاريخ، من خلال إعطاء المُثل التاريخية التي كانت تنتمي لضفّتي المتوسط[5]، والتي كانت الجزائر الجزء البارز فيه.

---

(1) محمد خير، فارس: المرجع السابق، ص 89.

(2) ويليام، سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب، عبد القادر زبايدية،ط1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1980م ، ص 7.

(3) اروين، راي: العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1776–1816م)، د–و–م، ط2، الجزائر، 1984م، ص 22.

(4) ويليام، سبنسر: نفس المرجع، ص 71.

(5) Lafi, Nora : Op.cit, P 300.

لقد كانت الجزائر دولة[1] قويّة أكّدت مكانتها كدولة مدنية بحريّة، فطبّقت سياسة خارجية ناجحة كانت تعتمد كلّيا على أسطول[2] القرصان، وإنّها لحقيقة غريبة أنّ هذا الأسطول قد مرّ بتغيرات ضخمة سواء في حجمه أو سلاحه، أو فاعليته أو حتى في مهامه وأهدافه. وذلك خلال فترة وجود الدّولة الجزائريّة الحديثة، وفيما يلي تفصيل لتطور مهام وأهداف البحرية الجزائريّة عبر ثلاثة قرون.

---

(1) ذكر لامب " أنّ طاعة الباب العالي ليست الاّ اسمية في الجزائر، ولكنّ الجزائريين مع ذلك يعترفون بالسلطان ويعتبرونه رئيسهم الديني" أنظر: اروين، راي: المرجع السابق، هامش رقم 7، ص 22.

كما أن معظم المراسلات الدبلوماسية التي ترسلها السلطات الفرنسية لنظيرتها الجزائرية كانت تُعنْون باسم الجمهورية الجزائرية. أنظر: مولود قاسم، نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية، ج1، دار البعث للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر 1985م.ص 115.

(2) الأسطول كلمة يونانية الأصل (Stolos) معناها مجموعة السفن الحربية. يقول فيها المسعودي: " كلمة رومية سمة (صفة) المراكب البحرية". وعرّف شهاب الدين الخفجي (1069–1659م) الأسطول بقوله: الأسطول هي السفن التي يسافر فيها للقتال". ويعرف الأسطول عند الإسبان بــالأرمادة (Armada). ويعرف عند العثمانيين بالدونانمة ومعناها الأسطول. ويسميه الفرس بالناخوذه. أنظر: مولاي، بالحميسي: المرجع السابق، ص 12.

أولا/ مرحلة الجهاد البحري "حرب الأرمدات":

كانت البحرية الجزائريّة غداة تأسيس الدولة الجزائريّة الحديثة سنة 1519م، موسومة بطابع جهادي صرف، لأنّ معظم أراضي شمال إفريقيا كانت تحت السيطرة الإسبانيّة(1)، لذلك عمل بيلربايات الجزائر على محو التواجد الإسباني المسيحي من

(1) ورد العديد من الأحاديث النبويّة الشريفة التي تحث على الجهاد بحرا منها:

- حث الرسول (ص) منذ بداية الرسالة على محاربة العدو على سطح الماء.
- شهيد البحر مثل شهيدي البر (رواه أبن ماجه)
- لا يركب البحر إلا حاجٌ أو غازٍ.
- ناس من أمتي عرضوا علي يركبون ظهر هذا البحر كالملوك على الأسرة.
- شهيد البر يغفر له كل ذنب إلاّ الدين والأمانة، وشهيد البحر يغفر له كل ذنب والدين والأمانة.
- شهيد البحر مثل شهيد البر والمائد في البحر كالمتشحط في دمه في البر ومابين الموجتين في البحر كقاطع الدنيا في طاعة الله، وإن الله وكلّ ملك الموت بقبض الأرواح إلاّ شهداء البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم ويغفر لشهيد البرّ الذنوب كلها إلا الدين ويغفر لشهيد البحر الذنوب كلها والدين.
- فضل غازي البحر على غازي البرّ كفضل غازي البرّ على القاعد في أهله وماله.

أورد الأحاديث الثلاثة الأخيرة الإمام جلال الدين السيوطي. (لم أتأكد من صحة هذه الأحاديث، نقلتها حرفيا) من:

أراضي المسلمين، كما حاولت البحريّة الجزائريّة بقيادة قراصنتها المحنّكين[1] الاستيلاء على عدد من الجزر المتوسطية والتي كانت محل صراع بين المسلمين والمسحيين نظرا لما لها من أهمية إستراتيجية في السيطرة على الملاحة البحريّة في البحر المتوسط، وفي هذا يقول المؤرّخان الجزائريان ناصر الدين سعيدوني، والمهدي بوعبدلي: «لقد كان الجهاد البحري في الجزائر ردّ فعل مباشر على التهديدات المسيحيّة التي اتخذت إثر سقوط الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي شكل حملات صليبية تباركها البابا وات بروما وتزّكيها الحكومات الأوربيّة، وتتزعمها إسبانيا الكاثوليكية »[2]

يضيف ناصر الدين سعيدوني قائلا: «لقد اتخذ هذا الصراع البحري منذ استقرار العثمانيين بالجزائر أبعادا عالمية، فاندرج في إطار النزاع بين قوتين عالميتين للفوز

بالسيادة على حوض البحر الأبيض المتوسط، الذي أصبح ميدانا للصّدام بين القوّة الإسلامية والقوّة المسيحية، وأثناء ذلك تمكّن البحارة الجزائريون في الفترة الممتدة من (1528 – 1584م) من شن ثلاث وثلاثين غارة بحرية ناجحة على السواحل الإسبانية أنقذوا أثنائها كثيرا من الأندلسيين المهددين بالتنصير أو الموت، ومن أشهر هذه الغارات نذكر، الغارة التي شنها إيدين رايس، وصالح رايس سنة 1529م، بأمر من البيلرباي خير الدين وتمكّن أثناءها من حمل 600 مسلم من نواحي (بلنسيا).

رغم اعتراض السفن الإسبانية لهما ... ووقوع معركة بحريّة ضارية، استطاعا العودة باللاجئين الأندلسيين إلى الجزائر، وكذلك نشير إلى العمليات الحربية التي قام بها كل من حسين فنزيانو، ومراد رايس، فقد نقل حسين فنزيانو عام 1584م، حوالي ألفين من مسلمي الأندلس كانوا يتعرضون للاضطهاد ... وتعرضت في نفس الفترة سواحل لورقة وضواحي قرطاجنة إلى هجمات مباغتة من الرياس الجزائريين».[3]

– مولاي، بالحميسي: المرجع السابق، ص 65.

(1) قاد معظم بيلربايات الجزائر الأسطول العثماني باسم الحرب المقدّسة ضد الصليبين المسيحيين.

(2) الجزائر في التاريخ، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 43.

(3) ناصر الدين، سعيدوني، والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 44.

إن الحمية الدينية التي طبعت الإمبراطورية المسيحية الإسبانية جعلت شغلها الشاغل وهاجسها النابض عبر حياتها يتطلع دوما إلى أمنية الخلاص مما هو غير مسيحي وذلك بالسهر المضني بالقضاء على مسلمي الأندلس[1] وكذا مسلمي شمال إفريقيا الذين أطالوا عمر الأندلس في عهد المرابطين وكذا الموحدين بدعمهم المطلق للأندلسيين، لقد تغذى ملوك إسبانيا لبن الحقد في كنائسهم على كل ما هو إسلامي ومن هناك خامرتهم فكرة "الحرب المقدس " (Guerra Santa) ليعلنوا مشاريعهم على كل ما هو غير مسيحي ففسح المجال بذلك أمام رغبتهم الجامحة في أحقية التوسع على حساب الآخرين فأعلنت على إثرها نواقيس الكنائس أوار الحرب المقدسة لمطاردة المسلمين الفارين من الأندلس إلى أرض الهجرة، وبالتحديد أرض شمال إفريقيا، بل واصلوا هجماتهم ليحتلوا كامل الشريط

الساحلي للجزائر[2] ودول شمال إفريقيا

لقد كانت البحريّة الجزائرية (أو بعبارة أخرى القرصنة الجزائريّة) موجهة لضرب البحريات الأوربية الصليبية، ولإنقاذ المسلمين الأندلسيين، ففي تلك الظروف السياسية والنفسية التي كان يعيشها مسلمو الأندلس وفي ظل القمع والاضطهاد الرهيب الذي فرضته عليهم التعصب الكنسي والملكي الهمجي. لقد كانت محنة مسلمي الأندلس والرغبة في تلبية ندائهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منهم، محكا ومخبرا لإفراز الرجال والطاقات التي تكون في مستوى المرحلة، فكانت البحرية الجزائرية أهلا لها. ففي تلك الظروف السياسية

---

(1) أنظر تفاصيل معاناة الأندلسيين في إسبانيا في كتاب: عبد الله، حمادي: المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492– 1616)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989.

(2) أنظر تفاصيل احتلال إسبانيا للسواحل الجزائرية في: ياسين، حكمت: الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس عشر أسبابه مراحله نتائجه/في/ الأصالة، العدد (14و 15)، مطبعة البعث، الجزائر، 1973. ص (241– 255).
أنظر أيضا: المهدي، بوعبدلي: أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني/في/ الأصالة، العدد 8، مطبعة البعث، الجزائر، ص(274– 291)

المتأزمة التي تعذرت فيها لغة الحوار استفحلت البحرية الجزائرية لتضرب في عمق سواحل الإمبراطورية المسيحية الإسبانية وتعرقل طرقاتها التجارية.

سجل التاريخ مابين 1563 و 1571م، أعظم الأحداث الجسام في تاريخ التصادم بين الروح الصليبية والمد الإسلامي ففي عهد كل من البيلرباي حسن باشا[1]

---

(1) تولى الجزائر بعد وفاة حاكمها اغا الطوشي سنه 1544م شرع حسن بن خير الدين حال وصوله، ومواجهة الغرب ، فعمل على تحصين مدينة الجزائر، كما أخذ يعمل على توطيد النظام في الجزائر وبين صفوف الجيش، ثم انصرف إلى حل مشاكل تلك المنطقة كتلمسان وغيرها سيطر على تلمسان واخضع المناطق المحيطة بها كما استمرت البحرية الجزائرية تهدد البحريات الصليبية. انتهج حسن سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية ، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصادية التي منحت لها مع استانبول غير أن حسن ابن خير الدين لم يلتزم بذلك، وأعلن عداءه لفرنسا في مناسبات عديدة. وتأكدت تلك العداوة بعد رفضه مساعده الفرنسيين له في استرداد الأندلس من يد الإسبان ، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين، مما جعل فرنسا توقع بين الباب العالي وحسن بقولهم :إن السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام رأت الدولة العثمانية أنه لزاماً عليها من تغيير سياستها في المنطقة خاصة بعد أن صار المغرب حليفاً قوياً للاسبان، فتم عزل بيلرباي الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الإساءة إلى حسن الجوار مع المغرب في سنة 1551م. توفي

وعلج علي[1] سجل الحضور المكثف للبحرية الجزائرية في عرض البحر الأبيض المتوسط اعنف هجماته على الملاحة البحرية الصليبية، كما أحدثت أخبار المقاومة الموريسكية المسلحة بجبال البشارات (1568- 1570) المدعمة من قبل البحرية الجزائرية أعظم التضحيات، وسجل كذلك التاريخ الحديث انهزام الأسطول العثماني أمام التحالف الصليبي الكبير في معركة ليبانت[2] ونجاة أسطول الجزائر من التحطم في هذه المعركة بفضل حنكة رايسها علج علي والذي غدا أميرال الأسطول العثماني. فكل هذه الأحداث أضرمت من سعير الحقد الصليبي ضد الإسلام وفي المقابل جعلت من الجزائر دار الجهاد الإسلامي التي تعلق عليها أمال المسلمين في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

حسن بن خير الدين في سنة 1570م، بإسطنبول بعدما عين بيلرباي للجزائر ثلاثة مرات.

عبد الرحمان، الجيلالي: المرجع السابق، ص (84- 86).

(1) ولد علج علي في 1520م، في منطقة كلاباريا في جنوب إيطاليا، أسر حين ذهابه إلى نابولي للدراسة وأتي به إلى الجزائر في حوالي 1536م، بقي عدة سنوات يجدف في سفن الجزائر ثم دفعته الرغبة في الانتقام من أحد خصومه إلى اعتناق الإسلام. وتدرج بسرعة في سلم المسؤوليات إلى أن أصبح من رياس البحر المشهورين. التحق بدرغوث في جربة. وفي 1551م، كان أحد أكبر الرياس الذين قدمهم درغوث لسليمان القانوني. في 1565م عينه السلطان على رأس إيالة طرابلس الغرب. وفي جوان 1568 عين بيلرباي الجزائر خلفا لمحمد باشا بن صالح رايس.
وفي 1571 غادر الجزائر للقيام ببعض العمليات في شرقي البحر الأبيض المتوسط ثم التحق بالأسطول العثماني للمشاركة في معركة ليبانت. عينه السلطان بعد هذه المعركة البحرية في منصب كابودان باشا وبقي فيها من 1571 إلى حين وفاته في 1587م. أنظر: المنور، مروش: المرجع السابق، ص (137- 140). للتعرف أكثر عن علج علي راجع: محمد سي، يوسف: أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

(2) كانت هذه المعركة البحرية أعظم هزيمة ونكبة عثمانية في القرن السادس عشر. فأكثر من 200 سفينة أسرت أو أغرقت و30 ألف مقاتل قتلوا أو جرحوا و3000 أسروا. استطاع علج علي بيلرباي الجزائر أن ينقذ الأسطول الجزائري المكون من 30 ألى 40 قادسا أو أكثر أن دوره في ليبانت جعل السلطان العثماني يمنحه لقب قلج (السيف) وعينه في منصب قبودان باشا. أنظر: المنور، مروش: المرجع السابق، ص 139.

لقد كان قراصنة الجزائر ينشطون بدافع ديني يدفعهم للهجوم على المسيحيين.[(1)]

ولذلك فإن القرصنة التي مارستها البحرية الجزائرية خلال القرن السادس عشر عبارة عن جهاد بحري وامتداد للحروب الصليبية، وذلك نظرا لأسبابها الدينية[(2)]، ودوافعها العاطفية، وبالتالي لم تكن الفوائد المادية التي جنتها الجزائر من جراء الجهاد البحري هدفا رئيسيا للقرصنة.

لقد أدى قراصنة الجزائر دورا هاما في قيادة الأسطول العثماني أو في إعادة بنائه وتدعيمه، كما شاركت البحريّة الجزائريّة التي كان يقودها رياس محنكون في معظم الحروب البحرية التي شنّتها الخلافة العثمانية على الدول الأوربية الصليبية، أو في محاصرة واحتلال الجزر التي كان المسيحيون يسيطرون عليها، أو في تحرير أراضي المسلمين كتونس، وطرابلس من وطأة الصليبيين الأوربيين.

وقتها كانت الجزائر بمثابة سيف الإسلام المسلول في وجه الإمبراطوريات الصليبية بالجزء الغربي من حوض المتوسط، وهذا ما دفع بالمؤرخ الأمريكي وليام سبنسر إلى القول: " إنّ مدينة الجزائر كعاصمة لدولة مستقرّة وقويّة في شمال إفريقيا قد مثّلت ... طرف القوّة الإسلاميّة العثمانيّة القاطع والمنهمك في المقارعة الصليبية ضد المسيحية، كالشفرة الحادة المدفوعة بعمق في التراب المسيحي»[(3)]

لقد قوى الطابع الديني للقرصنة في القرن السادس عشر، كما سبق ذكره، وغلب على القرصنة المسيحيّة وكذا الإسلاميّة[(4)] على حد سواء، ولاسيما إثر اشتداد الصراع بين الخلافة العثمانيّة والدول الأوربيّة. وفي هذا تقول المؤرّخة كورين شوفالييه: " كانت

---

(1) Xavier (L, V) : Op. Cit. P1.

(2) ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800—1830)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص66.

(3) ناصر الدين، سعيدوني: المرجع السابق ، ص 7.

(4) حول الصراع البحري الذي استفحل بين المسلمين والمسيحيين قبل ظهور الخلافة العثمانية راجع: مولاي، بالحميسي: البحر والعرب في التاريخ والأدب، ص (65 –109)

القرصنة بالنسبة للمسلمين قبل كل شيء شكلا من أشكال الجهاد البحري، ولو أنها تتخذ أحيانا طابع الحروب الصليبية من جانب المسيحيين"[1].

أما المؤرخ الأمريكي جون–ب– وولف " ... وفي القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، حين كان الهلال يقف في وجه الصليب في البحر الأبيض وأحواض نهر الدانوب، كان البحّارة يحاربون إمّا باسم الصليب وإمّا باسم الجهاد. فهؤلاء فرسان القدّيس يوحنا، نصبوا أنفسهم في جزيرة مالطا، وفرسان القديس ستيفان في توسكانيا، بينما كان البحّارة الخواص من المسيحيين قد جُنّدوا من قبل خلفاء الملك الإسباني وكذلك أمير مالطا، وانطلقوا إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط للاستيلاء على السفن التجاريّة وركّابها وربّانيها. وقد جعلوا البحر غير آمن على الحجّاج المسلمين بالإضافة إلى التّجار الذين يعبرون مياه المشرق، وكانوا على يقين من أنّ الله كان يبارك أعمالهم. ونفس الشيء يُقال عن البحّار (المسلمين) الذين كانوا يفترسون التجارة المسيحيّة، ويتلفون مظاهر الحياة على السواحل المسيحية. وكل من الإنجيل والقرآن يحرم لصوصية البحر، وكلاهما يبارك الحرب المقدسة"[2]. كورين شوفالييه فتقول: " كانت القرصنة بالنسبة للمسلمين قبل كل شيء شكلا من أشكال الجهاد البحري، ولو أنها تتخذ أحيانا طابع الحروب الصليبية من جانب المسيحيين.

لقد كانت عملية القرصنة إذا تحمل طابع الحرب المقدّسة لدى المسلمين والمسيحيين، ولكنّ الطابع الديني بدأ يضعف ويفسح المجال للطّابع الاقتصادي بعد توقف الصراع الكبير بين الدول الكبرى حيث أفسح انتهاء "حرب الأرمادات" المجال "لحرب المغامرات" المربحة.

(1) المرجع السابق، ص (49، 50).

(2) رياس البحر...، ص (43، 44).

ثانيا/ مرحلة الغزو البحري أو "حرب المغامرات":

في نهاية سنة 1577م، انتهى الصراع الذي احتدم منذ بداية القرن السادس عشر بين الخلافة العثمانيّة التي رفعت راية الجهاد الإسلامي وحامية الأقطار الإسلامية من جهة، والإمبراطوريّة الإسبانيّة التي رفعت لواء الحروب الصليبية لمواصلة احتلال ما تبقى من أراضي المسلمين من جهة أخرى. لقد كان فتح تونس في سنة 1574م، أخر عملية كبرى للأسطول العثماني في الأقطار المغاربية، أما الإسبان من جهتهم فقد حوّلوا أنظارهم إلى أفاق أخرى ونتيجة لهذه الظروف، ولأول مرّة تمكّن كلّ من الإسبان والعثمانيين من التوصل إلى اتفاق هدنة ثم سلم سنة 1577م بطلب من إسبانيا.

لقد كلّفت الحروب لكلا المعسكرين خسائر باهظة من الرّجال والعتاد. فكانت مسؤولة إلى حد كبير عن الإفلاس المالي الذي أصاب كلا الإمبراطوريتين. وفي هذا يقول المؤرّخ الجزائري المنور، مروش: «...إنّ الجهود الهائلة التي تطلّبتها رغبتهما النهمة في فتح أقاليم واسعة كانت في نظرهما مظهرا للعظمة والمجد الإمبريالي، هذه الجهود أنهكت القوى وغرست بذور التدهور والانحطاط في هذا الجسم المتضخم».[1]

---

(1) دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، القرصنة الأساطير والواقع، ج$_2$ ، دار القصبة للنشر،الجزائر،2009م، ص 193.

قبل هذه الأحداث كانت القرصنة تبدو، كمجرد عنصر مساعد في عمليات الجهاد البحري (العمليات الحربية)، ولكن وفي نهاية المطاف تحوّلت القرصنة، وتوطّدت وصارت تمثل النشاط الأساسي والمحوري للجزائر، إنّها تشغل قطاعا هاما من الحياة الاقتصاديّة، ونمّت حولها فئة اجتماعية ذات نفوذ قوي، وكأنّها بقصد تغطية تحوّلها إلى مؤسسة مركنتلية وأممية، ركّزت خطابها العام على أمجاد الجهاد ضد الكفّار[1].

إنّ هذا التحول في مهام القرصنة من الجهاد البحري إلى تفعيل الاقتصاد الوطني لم يكن بين عشيّة وضحاها، بل كان هناك تطور وتحول تدريجيّ بدأ بنهاية الحرب الدّينية التي خاضتها الخلافة العثمانيّة المدعّمة ببيلربايات الجزائر ضدّ أوربا المسيحيّة، وبالتالي لم يعد نشاط البحرية الجزائريّة مقتصرا على الجهاد البحري، وذلك بتأثير عوامل جديدة، ففي حين كانت عناصر البحريّة الجزائريّة حتى ذلك الوقت من سكان البحر المتوسط، بدأت تتسرّب إليها عناصر شمالية أدخلت معها إلى البحريّة الجزائريّة تكتيكا جديدا وأشرعة جديدة، مما ساعدها على اجتياز البحر المتوسط ودخول المحيط[2]، هذا المحيط الذي كان ينبض بالحياة جرّاء انتعاش الملاحة التجاريّة فيه، فكان من أهم أسباب التحوّل في مهام البحريّة الجزائريّة الوفرة الاقتصاديّة للمتوسط والمحيط الأطلسي، والتي استمرت إلى ما بعد منتصف القرن السابع عشر[3]، فبدأت البحريّة الجزائريّة تتحول شيئا فشيئا نحو الغزو البحري الذي كان الهدف من ورائه هو القيمة الاقتصادية، ومن هنا كانت نقطة التحوّل من الجهاد البحري إلى الغزو البحري، وبذلك غدت القرصنة الجزائرية تتمحور بشكل أساسي حول فكرة الغنائم الجيّدة والثمينة، لا حول فكرة الدين، خاصة بعدما احتضنت البحريّة الجزائريّة المغامرين الأوربيين الرّاغبين في الثراء السريع[4].

كما ساهم احتكار الأوربيين للتجارة العالميّة، وإقصاؤهم لأيّ نشاط تجاري تتعاطاه الجزائر، ساهم في نموّ وتطوّر قرصنة الجزائريّة لتنال بها نصيبها المشروع من التّجارة

(1) نفسه، ص 200.

(2) محمد خير، فارس: المرجع السابق، ص 92.

(3) فرنان، بورديل: المرجع السابق، ص 153.

(4) Lafi, Nora : Op. Cit. P 302.

العالميّة، وفي هذا يقول عبد القادر جغلول: " ... إنّ القرصنة لا تعبر تماما بصورة ارتدادية عن إرادة التواصل لأوليجاركية[1] التركية مع الطبقات السائدة مع دول المغرب العربي الوسطويّة (الجزائر). وفي الحقيقة، تشكّل هذه التجارة المضادة (القرصنة) ردّا على الاحتكار الذي تتمتع به السفن الأوربيّة في البحر الأبيض الغربي. كما أنّها (أي القرصنة) نوع من إعادة توزيع الأرباح التجاريّة في إطار الحصار المفروض من البرجوازيّة التجاريّة الأوربيّة على البحريّة التجاريّة الجزائريّة."[2] ثم يضيف معقبا على حكمه هذا بقوله: " وقد وفّرت القرصنة مواردَ مالية ضخمة قرنا كاملا. ففي عام 1623م كان الأسطول الجزائري يستطيع أن يجمع سبعين سفينة شراعية. وأثناء الحرب ضد فرنسا (1630-1634م) أستطاع القراصنة الجزائريون أن يستولوا على ثمانين سفينة وأسروا ما يزيد على ألف وثلاثة مئة أسير[3]. وقد بلغت مكاسب هذه الحرب المليارات من الفرنكات القديمة"[4].

بدأ نشاط القرصنة في هذه المرحلة يغذي حلقة المبادلات التجارية في حوض المتوسط، لقد كان قانون القرصنة يقضي بوجود التبادل التجاري الذي كان يعتمد أساسا على بيع الأسرى، فلم تكن الجزائر مرسى لنشاط القراصنة إلا بكونها مركزا تجاريا نشيطا[5]. كما كان رياس البحر يمثّلون مصدر رزق للتّجار، الذين كانوا ينتظرون عودتهم إلى الميناء لاقتناء بعض السلع، التي يبيعونها في الأسواق ومحلّاتهم[6]، وبالتالي أضحت القرصنة والنشاط الاقتصادي مترابطان، فهذا يرتفع وذلك يستفيد من الإزدهار والتقدم[7].

(1) أوليجركية، تعني حكم الأقلية، حيث تكون السيادة بين أيدي بعض الأشخاص أو بعض العائلات.

(2) تاريخ الجزائر الحديث دراسة سوسيولوجية، تعيب فيصل عباس، مراجعة خليل أحمد خليل، ط3، د-م-ج، الجزائر، 1983، ص (42، 43).

(3) راجع الفصل الثاني المبحث الأول "حرب بحريّة مدّة ربع قرن بسبب مدفعين"، ص 62

(4) عبد القادر، جغلول: المرجع السابق، ص (42، 43).

(5) Lafi, Nora : Op. Cit. P302.

(6) أرزقي، شويتام: المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني (1519-1830)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص 169.

(7) كورين، شوفالييه: المرجع السابق، ص 49.

لقد غذى- الطابع الغالب للبحريّة الجزائريّة في هذه المرحلة هو البحث عن الربح وقد رأينا أنّها أصبحت كسموبوليتيه مفتوحة لكل التقنيين الجيّدين والمغامرين الجريئين، وهكذا ابتعدت البحريّة الجزائريّة عن الروح التي كانت تحرّكها في البداية، وأعطت في تطوّرها طرازا خاصا وطابعا معينا لمدينة الجزائر في العصور الحديثة[1].

بدأت القرصنة تتحكّم في النظام المالي، ويقوم عليها البناء الاقتصادي للجزائر، وبالتالي زاد اهتمام السلطة الحاكمة بالمسائل الخارجية على حساب الأمور الداخليّة للبلاد باعتبار أنّ الدولة كانت تعتمد إلى حد كبير على ما توفّره البحريّة من أرباح وأسرى، وما تفرضه هيمنتها البحريّة من إتاوات وهدايا وترضيات دولية[2]. وفي هذا يقول المؤرّخ (أفير): «لقد كانت القرصنة بمثابة الدخل الوحيد للجزائر التي كانت حكوماتها تدعمها وتحميها باستمرار»[3]. وبذلك طرأ على القرصنة نمو كبير وأصبح لها تأثير قوي على اقتصاديات والمجتمع الجزائريّ؛ إنّ تنظيم القرصنة أصبح جهازا واضح المعالم، وصارت له قواعد ثابتة وتقنيات متجددة ووسائل ضخمة متزايدة[4].

اُعتبر القرن السابع عشر عصر البحريّة الجزائريّة الذهبيّ فقد شمل نشاطها البحر المتوسط كلّه، وامتد إلى سواحل أوربا الشمالية والبرازيل وأيسلندا والأراضي الجديدة[5]، ففي الفترة بين (1621-1627م)، كان في الجزائر عشرون ألف أسير منهم فلامنديون، وإيقوسيون وإنكليز، ودانمركيون، وإرلنديون، وهنغاريون، وإسبان، وفرنسيون، وإيطاليون، وسوريون، ومصريون، ويابانيون، وصينيون، وأناس من إسبانيا الجديدة، وإثيوبيا، فكلّ أمّة كان لها في الجزائر طابور من الأسرى، ومن المرتدين[6] (العلوج) وتجاوزت الغنائم في أوائل هذا القرن ما قيمته ثلاثة ملايين جنيه[1].

---

(1) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 369.

(2) ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي للجزائر....، ص 66.

(3) Xavier (L, V) : Op. Cit. P 2.

(4) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 191.

(5) محمد خير، فارس: المرجع السابق، ص 92.

(6) فرنان، بورديل: المرجع السابق، ص 153.

ففي بداية القرن السابع عشر أصبحت الجزائر مدينة في حجم المتوسط الذي مدّت فيه شباك قراصنتها حتى سواحل إنكلترا وسواحل إسلندا، لقد شكّلت ظاهرة عالمية أدّت إلى ولادة مؤسّسات لاسترجاع الأسرى منها وافتدائهم، وعملية تبادل الأسرى والسلع غيّرت من جغرافية الأسواق والتجارة فولّدت روابط واتصالات ووسطاء [2]

لقد تطوّر الأسطول الجزائري في ظرف نصف قرن فخلال الفترة (1529 - 1579م)، كان الأسطول الجزائريّ حسب الظروف يبلغ ما بين خُمس ورُبع مجموع الأسطول العثماني. أمّا في النصف الأول من القرن السابع عشر، فقد صار الأسطول الجزائريّ يشكّل

ما يعادل ثلث أو نصف الأسطول العثماني[3]، ففي هذه الفترة المفصليّة اتخذت القرصنة طابع المؤسسة الخاصة من أجل الربح بصورة شديدة الوضوح، وكانت سفن القرصنة إما ملكية لكبار القراصنة والحكام، أو لشركات ذات أسهم يتم فيها توزيع الغنائم حسب قواعد، عن كون الجزء الأكبر من السفن كلّه يملكه الرياس، هو في حد ذاته إشارة إلى ازدهار القرصنة وتوفيرها لأرباح كبيرة لأصحابها في بداية هذه المرحلة الثانية كما يشير ازدياد عمليات القرصنة وعدد السفن المخصّصة لها في العقود القادمة، إلاّ أنّها كمؤسسة من أجل الرّبح كانت لها مردودات مالية عالية[4].

أمّا عن علاقة النظام الحاكم بالقراصنة «فقد كانت القرصنة تستفيد كثيرا من المساعدات المباشرة وغير المباشرة التي كانت الدولة تتكفل بها، فوسّعت ووطّدت المنشآت الخاصة بالميناء والترسانة والأرصفة والمخازن والمستودعات وغيرها من المنشآت البحرية... وكان للحكّام مصلحة مباشرة في تنمية القرصنة سواء باعتبارهم من أرباب السفن أو لكونهم أكبر الملّاك لآلاف العبيد الذين كانوا يستعملون كمجدفين في هذه السفن... كما كان

---

(1) محمد خير، فارس: نفس المرجع، ص 92.

(2) فرنان، بورديل: نفس المرجع، ص 153.

(3) المنور، مروش: نفس المرجع ، ص 232.

(4)المنور، مروش: المرجع السابق، ص (201، 202).

الباشا الذي له مثل كلّ كبار الحكّام نصيب في القرصنة، وقد تكون عدّة سفن ملكا خاصا له، ... كما كانت القرصنة تضمن تشغيل ربع القوّة العاملة في الجزائر...»[1].

كانت مؤسسة القرصنة الجزائريّة جدّ فعّالة في هذه المرحلة، فقد تركّزت جهودهم ضدّ عدوّ الإسلام التقليدي ألا وهو إسبانيا، وكانت غاراتها على الجزر والسواحل الإسبانية مستمرة ولم تستطع الوسائل العديدة التي اتّخذتها الحكومة الإسبانية (أبراج مراقبة، منظّمات دفاع) أن تحول دون هجمات البحريّة الجزائريّة وبدأ سكّان سواحل إسبانيا المتوسطية يهجرون المناطق الساحلية إلى الدّاخل، وأوقفت هذه الغارات ازدهار هذه المناطق التجارية، وهاجم القراصنة الجزائريون سواحل سردينيا وصقليّة ونابولي وهدّدوا المواصلات البحريّة بين ممتلكات الإمبراطورية في إسبانيا وإيطاليا. وقد وصف هيدو نشاط هؤلاء القراصنة بقوله: «...كان القراصنة (الجزائريون) يبحرون أثناء الشّتاء والرّبيع ويطوفون في البحر من الشرق إلى الغرب ساخرين من سفننا التي كان بحّارتها في ذلك الوقت يتسلون باللهو والقصف في الموانئ؛ وكان القراصنة يعرفون أنّ السفن المسيحيّة الثقيلة هذه لا تستطيع أن تحلم بمطاردة سفنهم الخفيفة وأن تمنعها من النهب والسرقة».[2]

لقد ساهمت البحريّة الجزائريّة وقراصنتها في تطوير الاقتصاد الجزائريّ، وجعل مدينة الجزائر مدينة ثريّة مزدهرة، وفي هذا يقول الإخباري الجزائري ابن الرقية التلمساني: "...الجزائر عامرة ،كثيرة الأسواق...كثيرة الجند حصينة...ومرساها عامر بالسفن ورياسها موصوفون بالشّجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النّصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا

(1) نفسه، ص (202، 203).

(2) محمد خير، فارس: المرجع السابق، ص 91.

في قلوب العدّو. فبلادهم بذلك أفضل من جميع بلاد إفريقية وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأجود سلعة ومتاعا حتى أنّهم يسمونها «إسطنبول الصغرى»"[1].

وربّما كان مفتاح عظمة الجزائر في عصر القرصنة يكمن في الوضعية الجذابة الخاصة بها، فقد كانت تبرز صورة فريدة من نوعها في تاريخ البحر الأبيض المتوسط. وقد أعطى أحد نبلاء فرنسا، وهو السيد دوغرامي حينما كان في طريقه سنة 1619م، إلى القسطنطينية في مهمة رسمية انطباعا حيّا عن تلك الجاذبية التي كانت لمدينة الجزائر عن عزّ قوّتها: «مدينة الجزائر ذلك السوط المسلّط على العالم المسيحي، إنّها رعب أوربا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر»[2].

ويتحدث التّاجر الإنجليزي وليم دافيس عن الجزائر «المدينة القويّة الرائعة»[3]، ولعلّ أشدّ الرحالة انبهارا برخاء وغنى وثراء الجزائر هو مسكاريناس الذي يقول: « ... ولا أوفر فاكهة ولا أكثر تزوّدا بالمؤكولات رخيصة السعر، ولا أغنى بالعيون وأطيب جوّا وأثرى بالنقود من هذا البلد»[4].

إنّ رفاهية الجزائر التي استمرّت إلى منتصف القرن السابع عشر، والرّخاء الذي ساد مدينة الجزائر ونواحيها، لم يكن إلّا تحصيل حاصل لنشاط البحريّة الجزائريّة والمغامرين الجزائريين الذين طبعوا هذه الفترة بطابعهم.

إنّ ما توقف، إذن في سنة 1574م، في المتوسط هو الحروب الكبرى، (حرب الارمادات) أي حروب كلّ من الدول والحضارات، التي ما إن انتهت حتّى توجه محاربوها وتجّارها ورجالها وأحيانا سفنها، توجهوا جميعا إلى الحروب الصغرى (حرب المغامرات) التي شكّلت القرصنة وجهه الأبرز.

---

(1) ابن رقية التلمساني، الجديري: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم 1626، ص (1، 18).

(2) وليم، سبنسر: المرجع السابق، ص 11.

(3) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 356.

(4) المنور، مروش: المرجع السابق، ، ص 357.

ثالثا/ مرحلة الدبلوماسية "شرطة البحر":

إنّ التحوّل الثالث والأخير في مهام البحريّة الجزائريّة تمثّل في التكّيف التدريجي لأسطول الجزائر مع الظّروف العالميّة الجديدة، واتجهت ملكية السفن شيئا فشيئا نحو الملكية العامة وتقلّص عالم الرياس، الذين أصبحوا أكثر فأكثر من الأهالي.

إنّ هذا التطوّر أدّى بنوع من السير البطيء إلى اتّساع كبير لملكية الدولة لسفن القرصنة. لقد سبقت الإشارة إلى أنّ البحريّة الجزائريّة كانت عبارة عن مشروع خاص في معظم تاريخها. ذلك أنّها كانت مملوكة من قبل الرياس أو الأغنياء الذين يملكون النقود بالمدينة أو باعتبارهم أفرادا، وإمّا باعتبارهم منظمة من مالكي السفن، وهم الذين كانوا

يستثمرون نقودهم، وربّما يكون الدّاي أو الباشا من الملّاك أيضا، على أنّه في هذه الحالة يصبح مالكا باسمه الخاص كفرد يستثمر أمواله وليس باسمه كممثل للدولة، وقد تغيّر هذا النوع من التملّك خلال القرن الثامن عشر، ذلك أنّ حكومة الداي أصبحت أكثر استقرارا، وتدريجيا كانت الدولة قد تولّت ملكية معظم سفن البحّارة «فخلال سنة 1717م، لم تكن الجمهوريّة تملك سوى سفينة واحدة من مجموع تسع عشرة سفينة كانت في الخدمة، ولكن بنهاية هذا القرن أصبح كل هذا الأسطول تقريبا مملوكا للدّولة، لقد كان الأسطول كلّه تحت سيطرة وزير البحريّة»[1].

بتحوّل البحريّة الجزائريّة إلى ملكيّة عامة للدّولة، ظهرت تطوّرات في الدبلوماسية الجزائريّة الخارجيّة، بحيث كانت القرصنة توجه وتؤثر في السياسة الخارجيّة، ولكن بتحوّل الأسطول البحري إلى ملكية عامة انتقلت سلطة السياسة الخارجيّة إلى يد الحكومة الجزائريّة، التي امتلكت الآن الحرية المطلقة في عقد المعاهدات وإقرار السلام مع الدول الأجنبيّة.

بذلك أصبحت الجزائر أكثر انتظاما من السابق تمارس القرصنة مع احترام القواعد الدوليّة لذلك العصر، خاصة وأنّها تخلّصت من الضغوطات التي كان يمارسها القراصنة

ملّاك السّفن على الدولة في إعلان الحرب والقطيعة ضدّ الدول الأجنبيّة لتحقيق المصلحة الاقتصاديّة، ومما سهّل هذا الانتظام استقرار نظام الحكم منذ 1711م، إلى 1805م، والبنية الإداريّة للدولة التي بدأت تتبلور شيئا فشيئا والتي صارت أكثر تركيزا وتخصصا، وصارت الحكومة تتحكم فيها بفعالية أكثر. لقد سمحت الإدارة الجزائريّة بإتباع سياسة عامة تحدّد دور بحريتها (القرصنة)، ولم تعد البحريّة (أي القرصنة) هي التي تحدد السياسة العامة كما كان الحال في القرن الماضي.

إنّ هبوط القرصنة يتضح منذ العقد الأول للقرن الثامن عشر من الانخفاض الهائل للغنائم وعدد الأسرى الذي صار يتراوح ما بين ألفين وثلاثة آلاف إلا في حالات

---

(1) جون، ب، وولف: الجزائر وأوربا (1500–1830) تعريب أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 191.

استثنائية، ففي سنة 1801م أتى القراصنة الجزائريون بأربعة غنائم، وبواحدة فقط عام 1803م[1]. وسار الأسطول في نفس الاتجاه لأنّ القرصنة الجزائريّة لم تعد تجتذب الرياس الجريئين والأكفاء سواء من البلاد الشمالية أو غيرها. ويذهب المنور مروش إلى القول: أن القرصنة أصبحت في القرن الثامن عشر مجرد أداة دبلوماسية[2]، وبعبارة أخرى تحولت مهام البحريّة الجزائريّة إلى ضمان احترام الدول الأجنبيّة للمعاهدات التي أبرمتها مع السلطات الجزائريّة، وبذلك أصبحت القرصنة مهمة ثانوية للبحريّة الجزائريّة، لقد كانت التجاوزات الفردية بمبادرة بعض القراصنة لم تنته تماما وإنما أصبحت نادرة، وتعاقب بقسوة وأحيانا بالإعدام.

هذا التحوّل في مهام البحريّة الجزائريّة أدى إلى ضعفها وانكماشها، مما دفع السّلطات الجزائريّة إلى انتهاج إستراتيجية جديدة تقتضي العمل على الضغط على الدول الأوربية من أجل دفعها إلى توقيع معاهدات سلم وتجارة مع الجزائر، تدفع بمقتضاها(الدول الأوربية) إتاوات وهدايا لحكومة الداي مقابل حريّة الملاحة والتجارة مع الجزائر[3]. لقد وجدت السلطات الجزائريّة في دفع الدول الأوربيّة الإتاوات مقابل معاهدات سلام وتجارة مصدرا ثابتا وآمنا من الدخل المالي للخزينة[4] بعد جفاف القرصنة في القرن الثامن عشر، وبذلك بدأت الجزائر تضغط على الدول الأوربيّة عن طريق بحريتها لدفعها إلى توقيع معاهدات سلام معها حتى ولو تطلب ذلك إلى الارتباط مع كل الدول الأوربية وحتى التجارية منها، فبنهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أصبحت الجزائر تربطها مع معظم الدول الأوربيّة معاهدات سلم وتجارة حتى مع إسبانيا[5] وبعض

(1)عبد القادر، جغلول: المرجع السابق، ص 43.

(2) المرجع السابق، ص 379.

(3) ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 45.

(4) إنّ القوّة البحريّة التي تملكها الجزائر تبدو ضئيلة إذا اعتبرنا أنّها كانت أداة فعّالة لفرض ضرائب على جميع الدول المسيحيّة المهمة. أنظر:

اروين، راي: المرجع السابق، ص 26.

(5) في سنة 1790م، تمكنت إسبانيا من المحافظة على علاقات السلام مع الجزائر خلال الفترة بين (1785–1790م)، بفضل دفعها مبلغ أربعة ملايين ونصف مليون دولار. وفي سنة 1802م فرض الجزائريون على إسبانيا الخنوع

الدويلات الإيطالية[1]. وبذلك أصبحت العلاقات الدبلوماسية الجزائريّة مع مختلف الدول الأوربيّة تدرّ عليها لأموال التي كانت تعوّض المداخيل التي تجنيها من عمليات القرصنة، ففي سنة 1786م كتب أحد الأسرى الأمريكيين إلى طوماس جيفرسون مايلي: " أن الإنكليز، والفرنسيون، والهولنديون، والدانمركيون والسويديون، ويمكن القول أن كل الأمم تدفع لهم الجزية (أي للجزائريون)"[2].

وفي نفس الوقت تقريبا أشار أمريكي في الجزائر أنه برغم من تباهي الإنكليز بحصولها على أفضل معاهدة مع الجزائريين أكثر من أي دولة أخرى، فإنه مع ذلك، دفعت للجزائر هدايا تفوق قيمتها 28 ألف جنيه إسترليني سنة 1759م[3]

وبناء على ما أورده قنصل الولايات المتحدة الأمريكيّة ويليام شالر عام 1822م، فإن الحكومة الفرنسيّة قدمت للدولة الجزائريّة ثلاثين ألف فرنك مقابل احتكارها لصيد المرجان في خليج عنابة، كما دفع ملك نابولي جزية سنوية بحوالي أربع وعشرين ألف فرنك، وملك السويد أربع و عشرين ألف فرنك، وملك الدنمرك أربع و عشرين ألف فرنك، وأخيرا ملك البرتغال أربع و عشرين ألف فرنك[4]، ويؤكد بعضهم أن كلا من البرتغال، والدنمرك، ومملكة نابولي، والسويد، قدمت كلها ضريبة سنوية إلى الجزائر

لشروطهم التالية: أن تدفع مبلغ ستين ألف دولار مباشرة للداي، أن تبعث مع كل قنصل جديد تعتمده بهدايا تبلغ قيمتها 42 ألف دولار، أن تتنازل للجزائر عن ثلاث سفن حربية وعن سفينة للشحن، وأن تقدّم لوزارة الداي ثلاثين ألف دولار. أنظر:

اروين، راي: نفس المرجع، ص 33.

علي، تابليت: العلاقات الجزائرية الأمريكية (1776–1830)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، (2006–2007م)، ص 82.

(1) يحي، بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر،ط 2 ،ج2، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر،2007م، ص 43.

(2) علي، تابليت: نفس المرجع، ص (81 ،82)

(3) نفسه ص 82.

(4) وليام، شلر: مذاكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816/ 1824، تعريب وتعليق، إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر، والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 60.

قدرها ستة و ثلاثين ألف فرنك، في عام 1825م، أما البندقية فقد وافقت في إحدى المناسبات على أن يدفعوا للجزائر خمسين ألف دوقة دفعة واحدة وخمسة آلاف دوقة كل سنة بعد ذلك، وذلك مقابل حصولها على امتياز يسمح لهم بتسيير خمس عشرة سفينة تجارية في البحر الأبيض المتوسط[1]. ويذكر صاحب تحفة الزائر أن إنكلترا كانت تدفع ست مئة ليرة إنكليزية، وأن فرنسا تقدم هدايا ثمنية كلّما تغيّر قنصلها، وأن الدّنمارك تشتري أمنها بآلات وأدوات حربية قيمتها أربعة آلاف ريال سنيكوم.....الخ[2].

وقد كانت الحكومة الفرنسية تقدّم إلى الجزائر الهدايا في كلّ مناسبة وذلك بواسطة قنصلها العام بها.

فكانت قيمة هذه الهدايا تفوق أحيانا ما تحصل عليه الجزائر من السفن الفرنسية عن طريق مهاجمتها والتعرض لها في البحر. وكان على الدول الأوربيّة أن تقدّم الهدايا في كل مرة غيرت قنصلها، ولما كانت العوائد تمثل دخلا كبيرا لخزينة الدولة الجزائريّة، فقد كانت الجزائر تطالب بتبديل القناصل الأوربيين، وعدم بقائهم في مراكز عملهم مدّة طويلة لكي يتجدد دخلها بذلك، فكانت الدول الأوربيّة ملزمة بتغيير قناصلها كل عام أو عامين باستثناء إنكلترا وفرنسا[3].

أمّا في الداخل فقد اتّجه اهتمام التّجار الذين كانوا في الماضي يستثمرون أموالهم في شراء أسهم من ملكية سفن القرصنة، نحو أفاق جديدة مربحة أكثر، وهي التجارة الخارجية المتمحورة حول تصدير المواد الزراعيّة واستيراد منتجات التّرف وغيرها[4]. ووجدت السلطات الجزائريّة في هذا القطاع الجديد منبعا هاما يدرّ مداخيل عمومية

---

(1) اروين، راي: المرجع السابق، ص 34. أنظر أيضا:

علي، تابليت: المرجع السابق، ص 82.

(2) محمد، زروال: المرجع السابق، ص 20.

(3) نفسه، ص 22.

(4) لأخذ نظرة على التجارة البحرية للجزائر في القرن الثامن عشر أنظر:

- Mathiex, jean : " sur la marine marchande , Barbaresque au XVIII^{e} siecle " Annales économies sociétés civilisations, 1988, Volume 13, Numéro 1.

وخاصة[1]، إلى درجة أن أصبح المؤرّخون يطلقون على القرن الثامن عشر بقرن التحوّل من القرصنة إلى القمح[2]، وبذلك ارتبطت الجزائر بعلاقات تجارية مع معظم الدول الأوربيّة خلال هذه المرحلة[3]، فإسبانيا نالت بفضل الصلح المبرم مع الجزائر في سنة 1791م، حقوق امتياز صيد المرجان بالسواحل الغربية، وتحصلت على رخصة شراء ألاف من حمولات القمح، مع تخفيض الرسوم الجمركية على سفنها في المرسى الكبير بحيث لا تتجاوز هذه الرسوم ستة وخمسين ريالا أي ثلاثة و ستون فرنكا، مقابل إتاوة سنوية تقدر بمائة وعشرين ألف فرنك سنويا. ولقد سمح هذا الامتياز لدولة إسبانيا الحصول على جزء من الحبوب المصدّرة من أرزيو والتي تقدّر كميتها ما بين مائتين وخمسين إلى ثلاثة مائة ألف طن[4].

كما وقعت الجزائر معاهدات سلم وتجارة مع كل من الولايات المتحدة الأمريكيّة والسويد، والبندقية.

أما البندقية فقد نالت حق التجارة مقابل إتاوات سخية في معاهدة سنة 1747م، الموقّعة بين الداي إبراهيم ومندوب البندقية 2200 سكة ذهبية، ثم ارتفعت هذه الإتاوة إثر معاهدة 1763م، إلى ما يقارب خمسين ألف سكة جزائرية[5].

بينما السويد كانت سفنها تتمتع بامتيازات الحياد أثناء الحروب النابليونية، وتعمل لصالح إنكلترا وفرنسا وهولندا، وتتعاط التجارة مع الجزائر مقابل إتاوة سنوية تصل قيمتها إلى خمسين مليون فرنك، ثم نالت السويد امتياز حريّة التجارة البحريّة إثر معاهدة 1729م، وذلك مقابل دفع عشرة آلاف ريال كل عشر سنوات، وتزويد الجزائر بما قيمته

---

(1) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 374.

(2) Ali, Ismet Touati : Le Commerce Du Blé entre la Régence d’Alger et la France de (1559à 1830), Thèse pour obtenir le garde de Docteur, Université Sorbonne , 2009, P 2.

(3) حول حجم التجارة الجزائرية الخارجية مع أوربا، أنظر:

أرزقي، شويتام: المرجع السابق، ص (361−363).

(4) ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي للجزائر...، ص 74.

(5) نفسه، ص 75.

خمسة عشر ألف من العتاد الحربي والأخشاب، وتقديم ستة آلاف ريال عند تنصيب قنصل جديد لها بالجزائر[1].

وكانت فرنسا من أهمّ الدّول الأوربيّة التي تربطها بالجزائر علاقات تجاريّة خاصة في مجال تصدير الحبوب، إذ كان قمح الجزائر يغطي عجز فرنسا من هذه المادة[2].

كما يوضح لنا التواجد المكثف للسفن الجزائريّة بأوربا الأهمية التجارية التي أولتها الجزائر للتّجارة الخارجيّة مع أوربا ففي الفترة المحصورة ما بين(1801-1816م) سجل ميناء برشلونة دخول ثلاث و ثمانين سفينة تجارية جزائرية، وميناء مرسيليا سبع وستين سفينة، وليفرونة خمس سفن[3]، ومالطا اثني وعشرين سفينة، وبالتّالي أحصي ما يفوق مائة وسبع و سبعين سفينة تجاريّة جزائريّة تتعامل مع الموانئ الأوربية[4].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الميزان التجاري في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التّاسع عشر، فإننا نجد أن مجموع قيمة المعاملات التجارية بين الجزائر وأوربا هو 1473 ألف دولار منها (1200000) دولار للواردات و 273 ألف دولار للصّادرات حسب المعلومات التي أوردها شالير قنصل الولايات المتحدة الأمريكيّة والتي تعود إلى سنة 1822م[5].

---

(1) ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي للجزائر...،، ص 76.

(2) أنظر التفاصيل عن هذا الموضوع في:

- Ali, Ismet Touati : Op.Cit. P (2-7)

(3) تشير بعض الوثائق أن عدد السفن الجزائرية التي دخلت ميناء ليفرونة، بين سنتي (1794-1798) 54 سفينة تجارية، وبين سنتي (1816-1820) 69 سفينة تجارية، وبين سنتي (1821-1825) 91 سفينة، وبين سنتي (1826-1830) 133 سفينة تجارية. أنظر:

- أرزقي، شويتام: المرجع السابق، ص 360.

(4)هلايلي، حنيفي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2008م،، ص 161.

(5) ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي...، ص 76.

أمّا إذا أخذنا بعين الاعتبار تقرير اللّجنة الإفريقية فإننا نجد أن المعاملات التجاريّة الجزائريّة الأوربيّة كانت تبلغ قيمتها 4800000 فرنك منها 2200000 فرنك للواردات و 2600000 للصادرات[1].

كما بدأت السلطات الجزائريّة تولي اهتماما كبيرا بالتّجارة الداخلية لسدّ الفراغ الذي نتج عن جفاف القرصنة فازدهرت حركة الفلاحة وتربية المواشي وازدهر معها التبادل التجاري الخارجي فكان يخرج من عنابة كل سنة 12 ألف قنطار من الصوف، ومن الجزائر 8 آلاف قنطار، وكان يخرج سنويا أيضا نحو 25 ألف جلد، في سنة 1788م، خرج من مرسى الجزائر وعنابة، وأرزيو 150 ألف حمولة من القمح والشعير والخضر.[2]

وحينما أصبحت القرصنة لا توفر المعدات الحربيّة التي كانت تستولي عليها من السفن الحربيّة، اشترى محمد عثمان باشا من إنكلترا 50 مدفعا من الحديد ودفع ثمنها قمحا.[3]

وعليه فقد تخلّت الجزائر جزئيا عن مبدأ القرصنة، وتوجّهت نحو تأهيل التجارة الخارجيّة[4] ولا يمكن لهذه الأخيرة أن تتطوّر وتزدهر إلّا إذا استقرت الأوضاع السياسية والعلاقات الدبلوماسية مع الدول البحريّة منها الأوربيّة، وفي هاته الظروف غدت البحريّة الجزائريّة أداة دبلوماسية تسمح للجزائر بأن تبيع غاليا للدّول الأوربيّة شروط السّلام واطمئنان الملاحة البحريّة. إنّ الإتاوات والهدايا والتجارة وغيرها من الرسوم المرتبطة بالاتفاقيات التجاريّة كانت تقدّم تعويضا كبيرا عن القرصنة.

فخلال هذه المرحلة سيحمل وكيل الحرج على عاتقه مهام ومسؤولية "وزير البحريّة والشؤون الخارجيّة في نفس الوقت"، إن تزاوج مهام وكيل الحرج بين وزير البحريّة والشؤون الخارجيّة من جهة أخرى دلالة على أن البحريّة الجزائريّة أضحت موسومة

---

(1) نفسه ، ص 76.

(2) محمد، طمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص 248.

(3) نفسه، ص 248.

(4) أرزقي، شويتام: المرجع السابق، ص 358.

بوسم الدبلوماسية، وبذلك تحوّلت من أداة للقرصنة إلى أداة حربية دبلوماسية تفرض إرادة الحكّام الجزائريين وسياستهم الخارجيّة على المتعاملين مع الجزائر وغير المتعاملين معها هذا في إطار قدرات البحريّة الجزائريّة العسكريّة. وبذلك تحولت البحريّة الجزائريّة إلى شرطي البحر من خلال معاهدات السلام التي أبرمتها الجزائر مع مختلف القوى المسيحيّة من أجل الحفاظ على سفنها وممتلكاتها التجاريّة.[1]

لقد ارتقت القرصنة في الجزائر إلى مستوى مؤسسة اجتماعية، محمية ومنظمة بواسطة الحكومة القانونية التي حافظت على وجودها خلال أكثر من ثلاثة قرون، والتي انتهت بامتصاصها واحتكار ربحها[2]

وختاما فقد شهدت البحرية الجزائرية تطوّرا في أهدافها عبر ثلاث قرون (*1519-1800م*)" غير أنّ هذا التّطور لم يكن بين عشية وضحاها بل كان نتيجة تطوّرات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة شملت الجزائر وكلّ دول البحر الأبيض المتوسط، وعلى هذا الأساس ذكرنا أنّ أهداف البحريّة الجزائريّة مرّت بثلاث مراحل أساسيّة تختلف كلّ مرحلة عن المرحلة التي تليها اختلافا يكاد أن يكون جذريا، غير أنّنا نلتمس بعض المميزات التي تشترك فيها المراحل الثلاث

- المرحلة الأولى: مرحلة "الجهاد البحري" أو "حرب الأرمادات" وفيها طبع نشاط البحريّة الجزائريّة بطابع ديني محض تجسّد في الحرب بين الصليب والهلال.
- المرحلة الثانية: مرحلة "الغزو البحري" أو "مرحلة المغامرات": وفيها كان الهدف من وراء نشاط البحريّة الجزائريّة القيمة الاقتصاديّة. في ظل ضعف النزعة الدينية.
- المرحلة الثالثة، مرحلة " الدبلوماسية" أو "شرطة البحر" وفيها كان المطلوب من البحريّة الجزائريّة الضغط على الملاحة التّجارية للدّول الأوربّية بغرض دفع المماليك المسيحيّة إلى توقيع معاهدات سلام وتجارة مع الجزائر، تدفع بمقتضاها (الدّول الأوربيّة) إتاوات للحكومة الجزائريّة، وهكذا وجدت الجزائر في هذه الإتاوات مصدر دخل ثابت

---

(1) Xavier (L, V) : Op. Cit. P3.

(2) كورين، شوفالييه: المرجع السابق، ص 50.

وآمن بعد جفاف القرصنة، نتيجة التطورات التي شهدها البحر الأبيض المتوسط، وكذا السياسة الخارجية الجزائرية.

الفصل الثاني

استنجاد البلاط الفرنسي الملكي بالبحرية الجزائرية خلال القرن السادس عشر

أولا / التحالف الفرنسي- العثماني (1525-1535م)

ثانيا /استنجاد الملك الفرنسي فرانسوا الأول بالبحرية الجزائرية (1535-1547م).

ثالثا/ استنجاد ملوك فرنسا بالبحريّة الجزائريّة من هنري الثاني إلى هنري الرابع (1551-1598م)

استنجاد البلاط الفرنسي الملكي بالبحرية الجزائرية خلال القرن السادس عشر ميلادي.

تطلّع ملوك فرنسا منذ القدم لبسط نفوذهم وسيطرتهم على مماليك أوربّا، فتوارث ملوك فرنسا أبا عن جد هذه الأفكار، التي أضحت طموحا راسخا في ذهنياتهم.

بتولي فرانسوا الأول[1] عرش مُلك فرنسا، رأى أنّ مملكته قد فقدت كلّ مالها من هيمنه، وكرامة في الحرب التي كانت قد احتدمت بين فرنسا واسبانيا، وهي الحرب التي عرفت بحرب الستين سنة[2] ، فعقد العزم على إحياء أمجاد وكبرياء مملكته.

---

(1) ولد في سنة 1494 اعتلى عرش ملك فرنسا سنة 1515م، ويعتبر فرانسوا الأول من الفرع الأصغر لأسرة الفالوا الحاكمة، تولى حكم "مقاطعة أنغوليم "(شمالي بوردو في الجنوب الغربي لفرنسا) خلفا لأبيه، وحمل لقب كونت، كما أصبح دوقا على منطقة الفالوا (Valois:)شمالي باريس. انتقل إليه عرش فرنسا بعد وفاة أحد أعمامه، الملك السابق "لويس الثاني عشر "هو ابن عم" شارل من أورليان- "والد فرنسوا الأول، ويشتركان في جدهما "لويس، دوق أورليان".1407 م، وكان "فرنسوا" قد اقترن بابنته أي الملك" (كلود من فرنسا Claude) " أنظر: الأغا بن عودة، الميزاري: طلوع سعد سعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج $_2$، ط$_1$، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1990م، ص (64- 65).

(2) اندلعت حرب الستين سنة، في عهد الملك الفرنسي شارل الثامن، الذي كان يطمح في تحقيق مشاريع واسعة خاصة بعد أن امتلك جيشا يعد من أقوى الجيوش الأوربيّة في تلك الفترة. ولتحقيق طموحاته التوسعيّة، اكتشف أنّ له بعض الحقوق تخوّله التدخل في إيطاليا، من ذلك طالب شارل الثامن بحقه في وراثة نابولي.

بالإضافة إلى هذا الادّعاء ،فقد طلب منه التدخل من طرف عدة جهات ايطالية، كذلك كان شارل الثامن، يأمل في تحقيق مشاريع واسعة يبدأ باحتلال مملكة نابولي و انطلاقا منها يقوم بجرد حملة صليبية جديدة على الأرضي المقدّسة

بدأ خطوته الأولى في تنفيذ هدفه الذي يصبو إليه، بادعائه وراثة عرش ميلان من جدته كسبب دبلوماسي. ثم زحف بجيشه على ميلان، وتمكّن من حصد الانتصار تلوى الآخر بمساعدة حلفائه البنادقة، ففي سبتمبر 1515م، تمكّن فرانسوا من بسط سيطرته على شمال شبه الجزيرة الإيطالية بعد معركة مارينيون[1] الشهيرة.

وفي هذه الظروف حدث أن توفي الإمبراطور ماكسيميليان[2] (Maximilien)، وترك فراغا سياسيا كبيرا في القارة الأوربيّة، ونظرا لأنّ الحكم الإمبراطوري لم يكن وراثيا من الناحية النظرية، فقد رشّح كل من: فرانسوا الأوّل ملك فرنسا نفسه، وهنري ملك إنكلترا[3]، وشارل ملك اسبانيا[1]، للجلوس على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدّسة.

لإعادة تأسيس الإمارات المسيحيّة بها. ثم افتكّ القسطنطينية من أيدي العثمانيين وإعادة الحياة للإمبراطوريّة المسيحيّة الشرقيّة فزحف بجيشه في فيفري 1495على شبه الجزيرة الايطاليّة، وانتهت هذه المغامرة بفشل السياسة التوسعيّة الفرنسيّة في القارة الأوربيّة، إذ طُردت من كامل تراب إيطاليا، وتعرضت فرنسا نفسها للغزو.

حول هذا الموضوع راجع مايلي: عبد العزيز سليمان، نوار، وآخرون: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ،دار الفكر العربي ،مدينة الناصرية ،مصر،1999،ص (87–94)

– أحمد، توفيق المدني :حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492–1792 دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر 2007 ، ص47.

– جمال، قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619–1830م) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1987، ص 33

(3) عبد العزيز سليمان، نوار وآخرون: المرجع السابق ، ص 96. أنظر أيضا:

محمد، سي يوسف: أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر، 2009، ص45، هامش رقم 2.

(2) إمبراطور جرماني (1493–1519) تزوّج ماي ابنة بورغوينا فربط هولندا وبلجيكا بالبيت النمساوي.

(3) هنري الثامن (Henry VIII) (1491– 1547م) هو ملك انكلترا(1509–1547م) ابن الملك هنري السابع ينتمي إلى أسرة تيودور ، ذات الأصول الويلزية. ساهم حكمه المركزي القوي، في ترسيخ السلطة الملكية في انكلترا. ولد **هنري الثامن** في 28 يونيو عام 1491، وكانت وفاته 28 يناير 1547. تربع على عرش إنجلترا في الفترة من 21 أبريل عام 1509 وحتى وفاته. كان أيضا لورد أيرلندا ولاحقا صار ملكا كما طالب بمملكة فرنسا. وهو ثاني ملوك أسرة تيودور، حيث خَلَفَ والده الملك هنري السابع. أنظر: الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" الرابط، http://ar.wikipedia.org/wiki/ آخر تعديل لهذه الصفحة في 23:52، 12 أكتوبر 2011

سعى فرانسوا الأوّل للفوز بتاج الإمبراطوريّة، والهيمنة على كامل أوربا، خاصة بعد أن مكّنه انتصاره في معركة مارينيون من الاستحواذ على شمال القدم الايطالي، فغدا (فرانسوا الأوّل) من أكبر رجال عصره، كما كان شارل الخامس يصبو هو الآخر إلى تحقيق نفس الغاية[2]. وقد وعد كل واحد منهما بهذه المناسبة أن يستنفر كل القوى الأوربية ضد المسلمين وبالأخص ضد الخلافة العثمانية[3]

اجتمع الأمراء الناخبون في مدينة فرانك فورت ، وطالت بينهم المداولات والمساومات إلى أن اتفقوا في يوم 5جويلية 1519م، على انتخاب[4] ملك إسبانيا إمبراطورا للإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة[5] باسم شارل الخامس، لأنهم اعتبروه الأفضل لهذا التاج[6] وبذلك جمع شارل الخامس لنفسه مُلك اسبانيا، وألمانيا، والنمسا، ومملكة نابولي، وجمهوريّة جنوا، وفلورنسا، وجزيرتي مينورقا[7]، وصقلية، وإقليم وهران في الجزائر[8] ،وأيضا بلدان أمريكا أو العالم الجديد[9].

وبذلك تربّع شارل الخامس على عرش ينطوي تحت لوائه سبعة ملوك، وأمراء[10].

---

(1) هو كارلوس الأوّل فان هبسبرغ ، ولد سنة 1500م، ورث أرض أهله في الأراضي المنخفضة، والتركة الرغاندية، وأرض جده النمساوية في الدانوب، كما كان الوريث لعرش اسبانيا، حكم مملكة اسبانيا باسم شارل الأول، تخلّى عن عرشه لولده فيليب الأول سنة 1556م، وتوفي سنة1558م. أنظر: جون،ب، وولف: المرجع السابق، ص 35.

(2) عائشة، غطاس: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619-1694)، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، (1984-1985)، ص4

(3) خليل، إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تعريب محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ط1، دار الكتاب، بنغازي، ليبيا،2002م، ص 57

(4) حول ملابسات، وكواليس الانتخاب راجع: عبد العزيز سليمان، نور: المرجع السابق، ص 96

(5) أحمد توفيق، المدني: المرجع السابق، ص 252

(6) خليل، إينالجيك: المرجع السابق، ص57.

(7) مينورقا (MENORCA) وهي إحدى الجزر التي تؤلف جزر البليار الواقعة إلى الشرق من إسبانيا.

(8) عبد المنعم، الهاشمي: الخلافة العثمانية، دار ابن الحزم للطباعة والنشر، لبنان، 2004، ص252

(9) يحي، بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالیك أوربا (1500-1830)، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980م، ص41

(10) أحمد توفيق، المدني: حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص 252. أنظر ايظا: محمد، فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العليا العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981م، ص

فكّر الإمبراطور الجديد في ربط أملاكه على حساب فرنسا، حيث أنّ الظروف الجغرافيّة تدعوه إلى ذلك، لأنّه في حالة إذا ما تفككت فرنسا، فانه يستطيع ربط أسبانيا من جهة الأراضي المنخفضة و فرانش كومتيه من ناحية أخرى[1]، وبالتالي أضحت هذه المساعي من أجل الهيمنة، تهدد في المقام الأول فرنسا[2]، خاصة بعد أن أصبح الإمبراطور قادرا على غزوها، عبر الحدود الألمانية.

خشَيت فرنسا من ضياع موقعها في شبه الجزيرة الإيطالية، وبترها من مقاطعة برجنديا التي كانت تقع ضمن حدودها.

لم يكن بد في ظل هذه الأوضاع المهزوزة من استئناف الصراع الذي احتدم في الفترة الممتدة مابين 1520–1530م بين فرنسا واسبانيا بسبب ادّعاء كل من الملكين أحقيتهم في ميلان[3]. وبالفعل لقد شُكّلت الائتلافية المعادية لفرنسا في ايطاليا، التي ضمّت كلّ من البابا ليو العاشر[4]، وشارل الخامس، ومللك انكلترا، في شهر نوفمبر من عام 1521م، تستهدف طرد الفرنسيين من إيطاليا، وتصفية نفوذها بها. لقد استطاعت هذه الائتلافية تحقيق غرضها بعد وقت قصير[5]، ليزداد الوضع سوءا بالنسبة لفرانسوا الأوّل عندما عقد شارل اتفاقا مع القائد العام للجيوش الفرنسية (الدوق دي بربون) حتى يضمن مساعدته في الحصول على مقاطعة دوفين (Dauphin)، ومقاطعة بروفانس (Provence) ليضمن

(1) عبد العزيز سليمان، نور : المرجع السابق، ص 96

(2) عائشة، غطاس: المرجع السابق، ص 4

(3) محمد، سي يوسف: أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر 2009، ص 45.

(4) ليو العاشر،أو لورنزو آل مديتشي (1521 – 1475)م ويُطلق عليه أيضًا لورنزو العظيم، كان البابا خلال فترة أوج النهضة في روما، ولكنّه واجه أيضًا بدايات الإصلاح البروتستانتي. وقد انتُخب ليو للبابوية عام 1513م، وخلال عهده دخلت فرنسا وأسبانيا في نزاع طويل للسيادة على إيطاليا. وقد حاول ليو الحفاظ على سلطته الزمنيّة الدنيويّة للبابا، كما حاول الحفاظ على استقلال فلورنسا، وعلى زيادة مصالح أسرته.

(5)الأغا بن عودة، الميزاري: المصدر السابق، ص (64– 65). أنظر أيضا: جمال، قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا.....، ص 33

ربط ممتلكاته، برجنديا واسبانيا بإمارة تدين له بالولاء[1]، وبالفعل ساء وضع فرانسوا الأوّل حينما انظم قائد جيشه المرابط بايطاليا الدوق دي بربون بقوته إلى معسكر الإمبراطور عام 1522م، فهُزم الجيش الفرنسي في عدت معارك، إلاّ أنّ معركة بافيا[2] (Pavie) التي جرت أحداثها في 24 فيفري 1525م، كانت حاسمة كما كانت هذه المعركة، ضربة قاسية وُجّهت للمملكة الفرنسية في مقامها، ذلك أن فرانسوا الأوّل ملك فرنسا والذي يمثل كرامة شعبه وعزّته وقع في أسر عدوه[3]،

فنقل سجينا إلى مدريد[4]، مصفدا بالحديد.وهناك وقع رغم أنفه معاهدة مدريد المهينة[5].

في ظل هذه الظروف المزرية التي تمرّ بها فرنسا، اتّخذت الملكة – والدة فرانسوا الأول والوصية على العرش الفرنسي– اتخذت قرارا[6]، إمّا من قناعتها الشخصية، أو إيحاء من ابنها الملك، بأن تجثم فرنسا على ركبتيها أمام الباب العالي لتطلب عون ونصر الخلافة العثمانية ضدّ الإمبراطور شارل الخامس، خاصة بعد أن اتّضح للملكة الأمّ، وتأكد

---

(1) عبد العزيز سليمان، نوار: المرجع السابق، ص97.

(2) بافيا، مدينة في الشمال الغربي من إيطاليا تقع جنوب ميلانو.

(3) الأغا بن عودة، الميزاري: المرجع السابق، ص 65.

(4) كمال، حسنة: العلاقات العثمانية الفرنسية في العهد سليمان الثالث (1789–1807م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ص11 . أنظر أيضا: محمد، فريد بك المحامي: المرجع السابق، ص 209.

(5) الأغا بن عودة، الميزاري: المصدر السابق، ص 65.

احتوت هذه المعاهدة على 50 مادة من بينها:

– أن يتنازل فرانسوا الأول على دوقية برجنديا (شرق فرنسا)

– أن يتنازل (فرانسوا الأول) على ادعاءاته في ميلان، وجنوا، ونابولي، وفلندرا، وأرتوا.

– يرد فرانسوا الأراضي التي صادرها من الدوق بوربون.

– أن يتعهد فرانسوا في حالة عدم تنفيذ شروط المعاهدة بتسليم نفسه للإمبراطور لإعادته للأسر مرة أخرى أنظر تفاصيل بنود المعاهدة في :عبد العزيز سليمان، المرجع السابق، 98.

(6) عبد المنعم، الهاشمي: المرجع السابق، ص 283

الملك الابن، بأنّ لا أمل لفرنسا في الصمود في وجه الإمبراطور وطموحاته، وأن فرنسا ستغدو عاجلا أم آجلا قطعة من المملكة الاسبانية.

في هذه الظروف ظهر التحالف الفرنسي العثماني على مسرح السياسة الدولية.

فكيف نشاء هذا التحالف؟ وما هي أبعاده وإرهاصاته على الحوض الغربي للمتوسط؟

أولا/ مرحلة الجهاد البحري "حرب الأرمدات":

كانت البحرية الجزائريّة غداة تأسيس الدولة الجزائريّة الحديثة سنة 1519م، موسومة بطابع جهادي صرف، لأنّ معظم أراضي شمال إفريقيا كانت تحت السيطرة الإسبانيّة[1]، لذلك عمل بيلربايات الجزائر على محو التواجد الإسباني المسيحي من

(1) ورد العديد من الأحاديث النبويّة الشريفة التي تحث على الجهاد بحرا منها:

- حث الرسول (ص) منذ بداية الرسالة على محاربة العدو على سطح الماء.
- شهيد البحر مثل شهيدي البر (رواه أبن ماجه)
- لا يركب البحر إلا حاجٌ أو غازٍ.
- ناس من أمتي عرضوا علي يركبون ظهر هذا البحر كالملوك على الأسرة.

أراضي المسلمين، كما حاولت البحريّة الجزائريّة بقيادة قراصنتها المحنّكين[1] الاستيلاء على عدد من الجزر المتوسطية والتي كانت محل صراع بين المسلمين والمسحيين نظرا لما لها من أهمية إستراتيجية في السيطرة على الملاحة البحريّة في البحر المتوسط، وفي هذا يقول المؤرّخان الجزائريان ناصر الدين سعيدوني، والمهدي بوعبدلي: «لقد كان الجهاد البحري في الجزائر ردّ فعل مباشر على التهديدات المسيحيّة التي اتخذت إثر سقوط الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي شكل حملات صليبية تباركها الباباوات بروما وتزّكيها الحكومات الأوربيّة، وتتزعمها إسبانيا الكاثوليكية »[2]

يضيف ناصر الدين سعيدوني قائلا: «لقد اتخذ هذا الصراع البحري منذ استقرار العثمانيين بالجزائر أبعادا عالمية، فاندرج في إطار النزاع بين قوتين عالميتين للفوز

بالسيادة على حوض البحر الأبيض المتوسط، الذي أصبح ميدانا للصّدام بين القوّة الإسلامية والقوّة المسيحية، وأثناء ذلك تمكّن البحارة الجزائريون في الفترة الممتدة من (1528 – 1584م) من شن ثلاث وثلاثين غارة بحرية ناجحة على السواحل الإسبانية أنقذوا أثنائها كثيرا من الأندلسيين المهددين بالتنصير أو الموت، ومن أشهر هذه الغارات نذكر، الغارة التي شنها إيدين رايس، وصالح رايس سنة 1529م، بأمر من البيلرباي خير الدين وتمكّن أثناءها من حمل 600 مسلم من نواحي (بلنسيا).

- شهيد البر يغفر له كل ذنب إلاّ الدين والأمانة، وشهيد البحر يغفر له كل ذنب والدين والأمانة.
- شهيد البحر مثل شهيد البر والمائد في البحر كالمتشحط في دمه في البر ومابين الموجتين في البحر كقاطع الدنيا في طاعة الله، وإن الله وكلّ ملك الموت بقبض الأرواح إلاّ شهداء البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم ويغفر لشهيد البرّ الذنوب كلها إلا الدين ويغفر لشهيد البحر الذنوب كلها والدين.
- فضل غازي البحر على غازي البرّ كفضل غازي البرّ على القاعد في أهله وماله.

أورد الأحاديث الثلاثة الأخيرة الإمام جلال الدين السيوطي. (لم أتأكد من صحة هذه الأحاديث، نقلتها حرفيا) من:

– مولاي، بالحميسي: المرجع السابق، ص 65.

(1) قاد معظم بيلربايات الجزائر الأسطول العثماني باسم الحرب المقدّسة ضد الصليبين المسيحيين.

(2) الجزائر في التاريخ، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 43.

رغم اعتراض السفن الإسبانية لهما ... ووقوع معركة بحريّة ضارية، استطاعا العودة باللاجئين الأندلسيين إلى الجزائر، وكذلك نشير إلى العمليات الحربية التي قام بها كل من حسين فنزيانو، ومراد رايس، فقد نقل حسين فنزيانو عام 1584م، حوالي ألفين من مسلمي الأندلس كانوا يتعرضون للاضطهاد ... وتعرضت في نفس الفترة سواحل لورقة وضواحي قرطاجنة إلى هجمات مباغتة من الرياس الجزائريين».[1]

إن الحمية الدينية التي طبعت الإمبراطورية المسيحية الإسبانية جعلت شغلها الشاغل وهاجسها النابض عبر حياتها يتطلع دوما إلى أمنية الخلاص مما هو غير مسيحي وذلك بالسهر المضني بالقضاء على مسلمي الأندلس[2] وكذا مسلمي شمال إفريقيا الذين أطالوا عمر الأندلس في عهد المرابطين وكذا الموحدين بدعمهم المطلق للأندلسيين، لقد تغذى ملوك إسبانيا لبن الحقد في كنائسهم على كل ما هو إسلامي ومن هناك خامرتهم فكرة "الحرب المقدس " (Guerra Santa) ليعلنوا مشاريعهم على كل ما هو غير مسيحي ففسح المجال بذلك أمام رغبتهم الجامحة في أحقية التوسع على حساب الآخرين فأعلنت على إثرها نواقيس الكنائس أوار الحرب المقدسة لمطاردة المسلمين الفارين من الأندلس إلى أرض الهجرة، وبالتحديد أرض شمال إفريقيا، بل واصلوا هجماتهم ليحتلوا كامل الشريط

الساحلي للجزائر[3] ودول شمال إفريقيا

---

(1) ناصر الدين، سعيدوني، والمهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 44.

(2) أنظر تفاصيل معاناة الأندلسيين في إسبانيا في كتاب: عبد الله، حمادي: الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492– 1616)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989.

(3) أنظر تفاصيل احتلال إسبانيا للسواحل الجزائرية في: ياسين، حكمت: الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس عشر أسبابه مراحله نتائجه/في/ الأصالة، العدد (14و 15)، مطبعة البعث، الجزائر، 1973. ص (241– 255).

أنظر أيضا: المهدي، بوعبدلي: أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني/في/ الأصالة، العدد 8، مطبعة البعث، الجزائر، ص(274– 291)

لقد كانت البحريّة الجزائرية (أو بعبارة أخرى القرصنة الجزائريّة) موجهة لضرب البحريات الأوربية الصليبية، ولإنقاذ المسلمين الأندلسيين، ففي تلك الظروف السياسية والنفسية التي كان يعيشها مسلمو الأندلس وفي ظل القمع والاضطهاد الرهيب الذي فرضته عليهم التعصب الكنسي والملكي الهمجي. لقد كانت محنة مسلمي الأندلس والرغبة في تلبية ندائهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منهم، محكا ومخبرا لإفراز الرجال والطاقات التي تكون في مستوى المرحلة، فكانت البحرية الجزائرية أهلا لها. ففي تلك الظروف السياسية المتأزمة التي تعذرت فيها لغة الحوار استفحلت البحرية الجزائرية لتضرب في عمق سواحل الإمبراطورية المسيحية الإسبانية وتعرقل طرقاتها التجارية.

سجل التاريخ مابين 1563 و 1571م، أعظم الأحداث الجسام في تاريخ التصادم بين الروح الصليبية والمد الإسلامي ففي عهد كل من البيلرباي حسن باشا[1]

---

(1) تولى الجزائر بعد وفاة حاكمها اغا الطوشى سنه 1544م شرع حسن بن خير الدين حال وصوله، ومواجهة الغرب ، فعمل على تحصين مدينة الجزائر، كما أخذ يعمل على توطيد النظام في الجزائر وبين صفوف الجيش، ثم انصرف إلى حل مشاكل تلك المنطقة كتلمسان وغيرها سيطر على تلمسان واخضع المناطق المحيطة بها كما استمرت البحرية الجزائرية تهدد البحريات الصليبية. انتهج حسن سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية ، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصادية التي منحت لها مع استانبول غير أن حسن ابن خير الدين لم يلتزم بذلك، وأعلن عداءه لفرنسا في مناسبات عديدة. وتأكدت تلك العداوة بعد رفضه مساعده الفرنسيين له في استرداد الأندلس من يد الإسبان ، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين، مما جعل فرنسا توقع بين الباب العالي وحسن بقولهم :إن السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام رأت الدولة العثمانية أنه لزاماً عليها من تغيير سياستها في المنطقة خاصة بعد أن صار المغرب حليفاً قوياً للاسبان، فتم عزل بيلرباي الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الإساءة إلى حسن الجوار مع المغرب في سنة 1551م. توفي حسن بن خير الدين في سنة 1570م، بإسطنبول بعدما عين بيلرباي للجزائر ثلاثة مرات. عبد الرحمان، الجيلالي: المرجع السابق، ص (84- 86).

وعلج علي[1] سجل الحضور المكثف للبحرية الجزائرية في عرض البحر الأبيض المتوسط اعنف هجماته على الملاحة البحرية الصليبية، كما أحدثت أخبار المقاومة الموريسكية المسلحة بجبال البشارات (1568- 1570) المدعمة من قبل البحرية الجزائرية أعظم التضحيات، وسجل كذلك التاريخ الحديث انهزام الأسطول العثماني أمام التحالف الصليبي الكبير في معركة ليبانت[2] ونجاة أسطول الجزائر من التحطم في هذه المعركة بفضل حنكة رايسها علج علي والذي غدا أميرال الأسطول العثماني. فكل هذه الأحداث أضرمت من سعير الحقد الصليبي ضد الإسلام وفي المقابل جعلت من الجزائر دار الجهاد الإسلامي التي تعلق عليها أمال المسلمين في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

لقد كان قراصنة الجزائر ينشطون بدافع ديني يدفعهم للهجوم على المسيحيين.[3] ولذلك فإن القرصنة التي مارستها البحرية الجزائرية خلال القرن السادس عشر عبارة عن جهاد بحري وامتداد للحروب الصليبية، وذلك نظرا لأسبابها الدينية[4]، ودوافعها العاطفية،

---

(1) ولد علج علي في 1520م، في منطقة كلاباريا في جنوب إيطاليا، أسر حين ذهابه إلى نابولي للدراسة وأتي به إلى الجزائر في حوالي 1536م، بقي عدة سنوات يجدف في سفن الجزائر ثم دفعته الرغبة في الانتقام من أحد خصومه إلى اعتناق الإسلام. وتدرج بسرعة في سلم المسؤوليات إلى أن أصبح من رياس البحر المشهورين. التحق بدرغوث في جربة. وفي 1551م، كان أحد أكبر الرياس الذين قدمهم درغوث لسليمان القانوني. في 1565م عينه السلطان على رأس إيالة طرابلس الغرب. وفي جوان 1568 عين بيلرباي الجزائر خلفا لمحمد باشا بن صالح رايس.

وفي 1571 غادر الجزائر للقيام ببعض العمليات في شرقي البحر الأبيض المتوسط ثم التحق بالأسطول العثماني للمشاركة في معركة ليبانت. عينه السلطان بعد هذه المعركة البحرية في منصب كابودان باشا وبقي فيها من 1571 إلى حين وفاته في 1587م. أنظر: المنور، مروش: المرجع السابق، ص (137- 140). للتعرف أكثر عن علج علي راجع: محمد سي، يوسف: أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

(2) كانت هذه المعركة البحرية أعظم هزيمة ونكبة عثمانية في القرن السادس عشر. فأكثر من 200 سفينة أسرت أو أغرقت و30 ألف مقاتل قتلوا أو جرحوا و3000 أسروا. استطاع علج علي بيلرباي الجزائر أن ينقذ الأسطول الجزائري المكون من 30 ألى 40 قادسا أو أكثر أن دوره في ليبانت جعل السلطان العثماني يمنحه لقب قلج (السيف) وعينه في منصب قبودان باشا. أنظر: المنور، مروش: المرجع السابق، ص 139.

(3) Xavier (L, V) : Op. Cit. P1.

(4) ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800—1830)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص66.

وبالتالي لم تكن الفوائد المادية التي جنتها الجزائر من جراء الجهاد البحري هدفا رئيسيا للقرصنة.

لقد أدى قراصنة الجزائر دورا هاما في قيادة الأسطول العثماني أو في إعادة بنائه وتدعيمه، كما شاركت البحريّة الجزائريّة التي كان يقودها رياس محنكون في معظم الحروب البحرية التي شنّتها الخلافة العثمانية على الدول الأوربية الصليبية، أو في محاصرة واحتلال الجزر التي كان المسيحيون يسيطرون عليها، أو في تحرير أراضي المسلمين كتونس، وطرابلس من وطأة الصليبيين الأوربيين.

وقتها كانت الجزائر بمثابة سيف الإسلام المسلول في وجه الإمبراطوريات الصليبية بالجزء الغربي من حوض المتوسط، وهذا ما دفع بالمؤرخ الأمريكي وليام سبنسر إلى القول: " إنّ مدينة الجزائر كعاصمة لدولة مستقرّة وقويّة في شمال إفريقيا قد مثّلت ... طرف القوّة الإسلاميّة العثمانيّة القاطع والمنهمك في المقارعة الصليبية ضد المسيحية، كالشفرة الحادة المدفوعة بعمق في التراب المسيحي»[1]

لقد قوى الطابع الديني للقرصنة في القرن السادس عشر، كما سبق ذكره، وغلب على القرصنة المسيحيّة وكذا الإسلاميّة[2] على حد سواء، ولاسيما إثر اشتداد الصراع بين الخلافة العثمانيّة والدول الأوربيّة. وفي هذا تقول المؤرّخة كورين شوفالييه: " كانت القرصنة بالنسبة للمسلمين قبل كل شيء شكلا من أشكال الجهاد البحري، ولو أنها تتخذ أحيانا طابع الحروب الصليبية من جانب المسيحيين"[3].

أما المؤرخ الأمريكي جون–ب– وولف " ... وفي القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، حين كان الهلال يقف في وجه الصليب في البحر الأبيض وأحواض نهر الدانوب، كان البحّارة يحاربون إمّا باسم الصليب وإمّا باسم الجهاد. فهؤلاء فرسان

---

(1) ناصر الدين، سعيدوني: المرجع السابق ، ص 7.

(2) حول الصراع البحري الذي استفحل بين المسلمين والمسيحيين قبل ظهور الخلافة العثمانية راجع: مولاي، بالحميسي: البحر والعرب في التاريخ والأدب، ص (65 –109)

(3) المرجع السابق، ص (49، 50).

القدّيس يوحنا، نصبوا أنفسهم في جزيرة مالطا، وفرسان القديس ستيفان في توسكانيا، بينما كان البحّارة الخواص من المسيحيين قد جُنّدوا من قبل خلفاء الملك الإسباني وكذلك أمير مالطا، وانطلقوا إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط للاستيلاء على السفن التجاريّة وركّابها وربّانيها. وقد جعلوا البحر غير آمن على الحجّاج المسلمين بالإضافة إلى التّجار الذين يعبرون مياه المشرق، وكانوا على يقين من أنّ الله كان يبارك أعمالهم. ونفس الشيء يُقال عن البحّار (المسلمين) الذين كانوا يفترسون التجارة المسيحيّة، ويتلفون مظاهر الحياة على السواحل المسيحية. وكل من الإنجيل والقرآن يحرم لصوصية البحر، وكلاهما يبارك الحرب المقدسة"[1]. كورين شوفالييه فتقول: " كانت القرصنة بالنسبة للمسلمين قبل كل شيء شكلا من أشكال الجهاد البحري، ولو أنها تتخذ أحيانا طابع الحروب الصليبية من جانب المسيحيين.

لقد كانت عملية القرصنة إذا تحمل طابع الحرب المقدّسة لدى المسلمين والمسيحيين، ولكنّ الطابع الديني بدأ يضعف ويفسح المجال للطّابع الاقتصادي بعد توقف الصراع الكبير بين الدول الكبرى حيث أفسح انتهاء "حرب الأرمادات" المجال "لحرب المغامرات" المربحة.

(1) رياس البحر...، ص (43، 44).

ثانيا/ مرحلة الغزو البحري أو "حرب المغامرات":

في نهاية سنة 1577م، انتهى الصراع الذي احتدم منذ بداية القرن السادس عشر بين الخلافة العثمانيّة التي رفعت راية الجهاد الإسلامي وحامية الأقطار الإسلامية من جهة، والإمبراطوريّة الإسبانيّة التي رفعت لواء الحروب الصليبية لمواصلة احتلال ما تبقى من أراضي المسلمين من جهة أخرى. لقد كان فتح تونس في سنة 1574م، أخر عملية كبرى للأسطول العثماني في الأقطار المغاربية، أما الإسبان من جهتهم فقد حوّلوا أنظارهم إلى أفاق أخرى ونتيجة لهذه الظروف، ولأول مرّة تمكّن كلّ من الإسبان والعثمانيين من التوصل إلى اتفاق هدنة ثم سلم سنة 1577م بطلب من إسبانيا.

لقد كلّفت الحروب لكلا المعسكرين خسائر باهظة من الرّجال والعتاد. فكانت مسؤولة إلى حد كبير عن الإفلاس المالي الذي أصاب كلا الإمبراطوريتين. وفي هذا يقول المؤرّخ الجزائري المنور، مروش: «...إنّ الجهود الهائلة التي تطلّبتها رغبتهما النهمة في فتح أقاليم واسعة كانت في نظرهما مظهرا للعظمة والمجد الإمبريالي، هذه الجهود أنهكت القوى وغرست بذور التدهور والانحطاط في هذا الجسم المتضخم».[1]

(1) دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، القرصنة الأساطير والواقع، ج2 ، دار القصبة للنشر،الجزائر،2009م، ص 193.

قبل هذه الأحداث كانت القرصنة تبدو، كمجرد عنصر مساعد في عمليات الجهاد البحري (العمليات الحربية)، ولكن وفي نهاية المطاف تحوّلت القرصنة، وتوطّدت وصارت تمثل النشاط الأساسي والمحوري للجزائر، إنّها تشغل قطاعا هاما من الحياة الاقتصاديّة، ونمّت حولها فئة اجتماعية ذات نفوذ قوي، وكأنّها بقصد تغطية تحوّلها إلى مؤسسة مركنتلية وأممية، ركّزت خطابها العام على أمجاد الجهاد ضد الكفّار[1].

إنّ هذا التحول في مهام القرصنة من الجهاد البحري إلى تفعيل الاقتصاد الوطني لم يكن بين عشيّة وضحاها، بل كان هناك تطور وتحول تدريجيّ بدأ بنهاية الحرب الدّينية التي خاضتها الخلافة العثمانيّة المدعّمة ببيلربايات الجزائر ضدّ أوربا المسيحيّة، وبالتالي لم يعد نشاط البحرية الجزائريّة مقتصرا على الجهاد البحري، وذلك بتأثير عوامل جديدة، ففي حين كانت عناصر البحريّة الجزائريّة حتى ذلك الوقت من سكان البحر المتوسط، بدأت تتسرّب إليها عناصر شمالية أدخلت معها إلى البحريّة الجزائريّة تكتيكا جديدا وأشرعة جديدة، مما ساعدها على اجتياز البحر المتوسط ودخول المحيط[2]، هذا المحيط الذي كان ينبض بالحياة جرّاء انتعاش الملاحة التجاريّة فيه، فكان من أهم أسباب التحوّل في مهام البحريّة الجزائريّة الوفرة الاقتصاديّة للمتوسط والمحيط الأطلسي، والتي استمرت إلى ما بعد منتصف القرن السابع عشر[3]، فبدأت البحريّة الجزائريّة تتحول شيئا فشيئا نحو الغزو البحري الذي كان الهدف من ورائه هو القيمة الاقتصادية، ومن هنا كانت نقطة التحوّل من الجهاد البحري إلى الغزو البحري، وبذلك غدت القرصنة الجزائرية تتمحور بشكل أساسي حول فكرة الغنائم الجيّدة والثمينة، لا حول فكرة الدين، خاصة بعدما احتضنت البحريّة الجزائريّة المغامرين الأوربيين الرّاغبين في الثراء السريع[4].

كما ساهم احتكار الأوربيين للتجارة العالميّة، وإقصاؤهم لأيّ نشاط تجاري تتعاطاه الجزائر، ساهم في نموّ وتطوّر قرصنة الجزائريّة لتنال بها نصيبها المشروع من التّجارة

---

(1) نفسه، ص 200.

(2) محمد خير، فارس: المرجع السابق، ص 92.

(3) فرنان، بورديل: المرجع السابق، ص 153.

(4) Lafi, Nora : Op. Cit. P 302.

العالميّة، وفي هذا يقول عبد القادر جغلول: " ... إنّ القرصنة لا تعبر تماما بصورة ارتدادية عن إرادة التواصل لأوليجاركية[1] التركية مع الطبقات السائدة مع دول المغرب العربي الوسطويّة (الجزائر). وفي الحقيقة، تشكّل هذه التجارة المضادة (القرصنة) ردّا على الاحتكار الذي تتمتع به السفن الأوربيّة في البحر الأبيض الغربي. كما أنّها (أي القرصنة) نوع من إعادة توزيع الأرباح التجاريّة في إطار الحصار المفروض من البرجوازيّة التجاريّة الأوربيّة على البحريّة التجاريّة الجزائريّة."[2] ثم يضيف معقبا على حكمه هذا بقوله: " وقد وفّرت القرصنة مواردَ مالية ضخمة قرنا كاملا. ففي عام 1623م كان الأسطول الجزائري يستطيع أن يجمع سبعين سفينة شراعية. وأثناء الحرب ضد فرنسا (1630-1634م) أستطاع القراصنة الجزائريون أن يستولوا على ثمانين سفينة وأسروا ما يزيد على ألف وثلاثة مئة أسير[3]. وقد بلغت مكاسب هذه الحرب المليارات من الفرنكات القديمة"[4].

بدأ نشاط القرصنة في هذه المرحلة يغذي حلقة المبادلات التجارية في حوض المتوسط، لقد كان قانون القرصنة يقضي بوجود التبادل التجاري الذي كان يعتمد أساسا على بيع الأسرى، فلم تكن الجزائر مرسى لنشاط القراصنة إلا بكونها مركزا تجاريا نشيطا[5]. كما كان رياس البحر يمثّلون مصدر رزق للتّجار، الذين كانوا ينتظرون عودتهم إلى الميناء لاقتناء بعض السلع، التي يبيعونها في الأسواق ومحلّاتهم[6]، وبالتالي أضحت القرصنة والنشاط الاقتصادي مترابطان، فهذا يرتفع وذلك يستفيد من الإزدهار والتقدم[7].

---

(1) أوليجركية، تعني حكم الأقلية، حيث تكون السيادة بين أيدي بعض الأشخاص أو بعض العائلات.

(2) تاريخ الجزائر الحديث دراسة سوسيولوجية، تعيب فيصل عباس، مراجعة خليل أحمد خليل، ط3، د-م-ج، الجزائر، 1983، ص (42، 43).

(3) راجع الفصل الثاني المبحث الأول "حرب بحريّة مدّة ربع قرن بسبب مدفعين"، ص 62

(4) عبد القادر، جغلول: المرجع السابق، ص (42، 43).

(5) Lafi, Nora : Op. Cit. P302.

(6) أرزقي، شويتام: المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني (1519-1830)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص 169.

(7) كورين، شوفالييه: المرجع السابق، ص 49.

لقد غذى- الطابع الغالب للبحريّة الجزائريّة في هذه المرحلة هو البحث عن الربح وقد رأينا أنّها أصبحت كسموبوليتيه مفتوحة لكل التقنيين الجيّدين والمغامرين الجريئين، وهكذا ابتعدت البحريّة الجزائريّة عن الروح التي كانت تحرّكها في البداية، وأعطت في تطوّرها طرازا خاصا وطابعا معينا لمدينة الجزائر في العصور الحديثة[1].

بدأت القرصنة تتحكّم في النظام المالي، ويقوم عليها البناء الاقتصادي للجزائر، وبالتالي زاد اهتمام السلطة الحاكمة بالمسائل الخارجية على حساب الأمور الداخليّة للبلاد باعتبار أنّ الدولة كانت تعتمد إلى حد كبير على ما توفّره البحريّة من أرباح وأسرى، وما تفرضه هيمنتها البحريّة من إتاوات وهدايا وترضيات دولية[2]. وفي هذا يقول المؤرّخ (أفير): «لقد كانت القرصنة بمثابة الدخل الوحيد للجزائر التي كانت حكوماتها تدعمها وتحميها باستمرار»[3]. وبذلك طرأ على القرصنة نمو كبير وأصبح لها تأثير قوي على اقتصاديات والمجتمع الجزائريّ؛ إنّ تنظيم القرصنة أصبح جهازا واضح المعالم، وصارت له قواعد ثابتة وتقنيات متجددة ووسائل ضخمة متزايدة[4].

اُعتبر القرن السابع عشر عصر البحريّة الجزائريّة الذهبيّ فقد شمل نشاطها البحر المتوسط كلّه، وامتد إلى سواحل أوربا الشمالية والبرازيل وأيسلندا والأراضي الجديدة[5]، ففي الفترة بين (1621-1627م)، كان في الجزائر عشرون ألف أسير منهم فلامنديون، وإيقوسيون وإنكليز، ودانمركيون، وإرلنديون، وهنغاريون، وإسبان، وفرنسيون، وإيطاليون، وسوريون، ومصريون، ويابانيون، وصينيون، وأناس من إسبانيا الجديدة، وإثيوبيا، فكلّ أمّة كان لها في الجزائر طابور من الأسرى، ومن المرتدين[6] (العلوج) وتجاوزت الغنائم في أوائل هذا القرن ما قيمته ثلاثة ملايين جنيه[1].

---

(1) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 369.

(2) ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي للجزائر....، ص 66.

(3) Xavier (L, V) : Op. Cit. P 2.

(4) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 191.

(5) محمد خير، فارس: المرجع السابق، ص 92.

(6) فرنان، بورديل: المرجع السابق، ص 153.

ففي بداية القرن السابع عشر أصبحت الجزائر مدينة في حجم المتوسط الذي مدّت فيه شباك قراصنتها حتى سواحل إنكلترا وسواحل إسلندا، لقد شكّلت ظاهرة عالمية أدّت إلى ولادة مؤسّسات لاسترجاع الأسرى منها وافتدائهم، وعملية تبادل الأسرى والسلع غيّرت من جغرافية الأسواق والتجارة فولّدت روابط واتصالات ووسطاء [2]

لقد تطوّر الأسطول الجزائري في ظرف نصف قرن فخلال الفترة (1529 – 1579م)، كان الأسطول الجزائريّ حسب الظروف يبلغ ما بين خُمس ورُبع مجموع الأسطول العثماني. أمّا في النصف الأول من القرن السابع عشر، فقد صار الأسطول الجزائريّ يشكّل

ما يعادل ثلث أو نصف الأسطول العثماني[3]، ففي هذه الفترة المفصليّة اتخذت القرصنة طابع المؤسسة الخاصة من أجل الربح بصورة شديدة الوضوح، وكانت سفن القرصنة إما ملكية لكبار القراصنة والحكام، أو لشركات ذات أسهم يتم فيها توزيع الغنائم حسب قواعد، عن كون الجزء الأكبر من السفن كلّه يملكه الرياس، هو في حد ذاته إشارة إلى ازدهار القرصنة وتوفيرها لأرباح كبيرة لأصحابها في بداية هذه المرحلة الثانية كما يشير ازدياد عمليات القرصنة وعدد السفن المخصّصة لها في العقود القادمة، إلاّ أنّها كمؤسسة من أجل الرّبح كانت لها مردودات مالية عالية[4].

أمّا عن علاقة النظام الحاكم بالقراصنة «فقد كانت القرصنة تستفيد كثيرا من المساعدات المباشرة وغير المباشرة التي كانت الدولة تتكفل بها، فوسّعت ووطّدت المنشآت الخاصة بالميناء والترسانة والأرصفة والمخازن والمستودعات وغيرها من المنشآت البحرية... وكان للحكّام مصلحة مباشرة في تنمية القرصنة سواء باعتبارهم من أرباب السفن أو لكونهم أكبر الملّاك لآلاف العبيد الذين كانوا يستعملون كمجدفين في هذه السفن... كما كان

---

(1) محمد خير، فارس: نفس المرجع، ص 92.

(2) فرنان، بورديل: نفس المرجع، ص 153.

(3) المنور، مروش: نفس المرجع ، ص 232.

(4)المنور، مروش: المرجع السابق، ص (201، 202).

الباشا الذي له مثل كلّ كبار الحكّام نصيب في القرصنة، وقد تكون عدّة سفن ملكا خاصا له، ... كما كانت القرصنة تضمن تشغيل ربع القوّة العاملة في الجزائر...»[1].

كانت مؤسسة القرصنة الجزائريّة جدّ فعّالة في هذه المرحلة، فقد تركّزت جهودهم ضدّ عدوّ الإسلام التقليدي ألا وهو إسبانيا، وكانت غاراتها على الجزر والسواحل الإسبانية مستمرة ولم تستطع الوسائل العديدة التي اتّخذتها الحكومة الإسبانية (أبراج مراقبة، منظّمات دفاع) أن تحول دون هجمات البحريّة الجزائريّة وبدأ سكّان سواحل إسبانيا المتوسطية يهجرون المناطق الساحلية إلى الدّاخل، وأوقفت هذه الغارات ازدهار هذه المناطق التجارية، وهاجم القراصنة الجزائريون سواحل سردينيا وصقليّة ونابولي وهدّدوا المواصلات البحريّة بين ممتلكات الإمبراطورية في إسبانيا وإيطاليا. وقد وصف هيدو نشاط هؤلاء القراصنة بقوله: «...كان القراصنة (الجزائريون) يبحرون أثناء الشّتاء والرّبيع ويطوفون في البحر من الشرق إلى الغرب ساخرين من سفننا التي كان بحّارتها في ذلك الوقت يتسلون باللهو والقصف في الموانئ؛ وكان القراصنة يعرفون أنّ السفن المسيحيّة الثقيلة هذه لا تستطيع أن تحلم بمطاردة سفنهم الخفيفة وأن تمنعها من النهب والسرقة».[2]

لقد ساهمت البحريّة الجزائريّة وقراصنتها في تطوير الاقتصاد الجزائريّ، وجعل مدينة الجزائر مدينة ثريّة مزدهرة، وفي هذا يقول الإخباري الجزائري ابن الرقية التلمساني: "...الجزائر عامرة ،كثيرة الأسواق...كثيرة الجند حصينة...ومرساها عامر بالسفن ورياسها موصوفون بالشّجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النّصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا

(1) نفسه، ص (202، 203).

(2) محمد خير، فارس: المرجع السابق، ص 91.

في قلوب العدّو. فبلادهم بذلك أفضل من جميع بلاد إفريقية وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأجود سلعة ومتاعا حتى أنّهم يسمونها «إسطنبول الصغرى»"[1].

وربّما كان مفتاح عظمة الجزائر في عصر القرصنة يكمن في الوضعية الجذابة الخاصة بها، فقد كانت تبرز صورة فريدة من نوعها في تاريخ البحر الأبيض المتوسط. وقد أعطى أحد نبلاء فرنسا، وهو السيد دوغرامي حينما كان في طريقه سنة 1619م، إلى القسطنطينية في مهمة رسمية انطباعا حيّا عن تلك الجاذبية التي كانت لمدينة الجزائر عن عزّ قوّتها: «مدينة الجزائر ذلك السوط المسلّط على العالم المسيحي، إنّها رعب أوربا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر»[2].

ويتحدث التّاجر الإنجليزي وليم دافيس عن الجزائر «المدينة القويّة الرائعة»[3]، ولعلّ أشدّ الرحالة انبهارا برخاء وغنى وثراء الجزائر هو مسكاريناس الذي يقول: « ... ولا أوفر فاكهة ولا أكثر تزوّدا بالمؤكولات رخيصة السعر، ولا أغنى بالعيون وأطيب جوّا وأثرى بالنقود من هذا البلد»[4].

إنّ رفاهية الجزائر التي استمرّت إلى منتصف القرن السابع عشر، والرّخاء الذي ساد مدينة الجزائر ونواحيها، لم يكن إلّا تحصيل حاصل لنشاط البحريّة الجزائريّة والمغامرين الجزائريين الذين طبعوا هذه الفترة بطابعهم.

إنّ ما توقف، إذن في سنة 1574م، في المتوسط هو الحروب الكبرى، (حرب الارمادات) أي حروب كلّ من الدول والحضارات، التي ما إن انتهت حتّى توجه محاربوها وتجّارها ورجالها وأحيانا سفنها، توجهوا جميعا إلى الحروب الصغرى (حرب المغامرات) التي شكّلت القرصنة وجهه الأبرز.

---

(1) ابن رقية التلمساني، الجديري: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم 1626، ص (1، 18).

(2) وليم، سبنسر: المرجع السابق، ص 11.

(3) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 356.

(4) نفسه، ص 357.



ثالثا/ مرحلة الدبلوماسية "شرطة البحر":

إنّ التحوّل الثالث والأخير في مهام البحريّة الجزائريّة تمثّل في التكّيف التدريجي لأسطول الجزائر مع الظّروف العالميّة الجديدة، واتجهت ملكية السفن شيئا فشيئا نحو الملكية العامة وتقلّص عالم الرياس، الذين أصبحوا أكثر فأكثر من الأهالي.

إنّ هذا التطوّر أدّى بنوع من السير البطيء إلى اتّساع كبير لملكية الدولة لسفن القرصنة. لقد سبقت الإشارة إلى أنّ البحريّة الجزائريّة كانت عبارة عن مشروع خاص في معظم تاريخها. ذلك أنّها كانت مملوكة من قبل الرياس أو الأغنياء الذين يملكون النقود بالمدينة أو باعتبارهم أفرادا، وإمّا باعتبارهم منظمة من مالكي السفن، وهم الذين كانوا يستثمرون نقودهم، وربّما يكون الدّاي أو الباشا من الملّاك أيضا، على أنّه في هذه الحالة يصبح مالكا باسمه الخاص كفرد يستثمر أمواله وليس باسمه كممثل للدولة، وقد تغيّر هذا النوع من التملّك خلال القرن الثامن عشر، ذلك أنّ حكومة الداي أصبحت أكثر استقرارا، وتدريجيا كانت الدولة قد تولّت ملكية معظم سفن البحّارة «فخلال سنة 1717م، لم تكن الجمهوريّة تملك سوى سفينة واحدة من مجموع تسع عشرة سفينة كانت في الخدمة، ولكن بنهاية هذا القرن أصبح كل هذا الأسطول تقريبا مملوكا للدّولة، لقد كان الأسطول كلّه تحت سيطرة وزير البحريّة»(1).

(1) جون، ب، وولف: الجزائر وأوربا (1500-1830) تعريب أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 191.

بتحوّل البحريّة الجزائريّة إلى ملكيّة عامة للدّولة، ظهرت تطوّرات في الدبلوماسية الجزائريّة الخارجيّة، بحيث كانت القرصنة توجه وتؤثر في السياسة الخارجيّة، ولكن بتحوّل الأسطول البحري إلى ملكية عامة انتقلت سلطة السياسة الخارجيّة إلى يد الحكومة الجزائريّة، التي امتلكت الآن الحرية المطلقة في عقد المعاهدات وإقرار السلام مع الدول الأجنبيّة.

بذلك أصبحت الجزائر أكثر انتظاما من السابق تمارس القرصنة مع احترام القواعد الدوليّة لذلك العصر، خاصة وأنّها تخلّصت من الضغوطات التي كان يمارسها القراصنة

ملّاك السّفن على الدولة في إعلان الحرب والقطيعة ضدّ الدول الأجنبيّة لتحقيق المصلحة الاقتصاديّة، ومما سهّل هذا الانتظام استقرار نظام الحكم منذ 1711م، إلى 1805م، والبنية الإداريّة للدولة التي بدأت تتبلور شيئا فشيئا والتي صارت أكثر تركيزا وتخصصا، وصارت الحكومة تتحكم فيها بفعالية أكثر. لقد سمحت الإدارة الجزائريّة بإتباع سياسة عامة تحدّد دور بحريتها (القرصنة)، ولم تعد البحريّة (أي القرصنة) هي التي تحدد السياسة العامة كما كان الحال في القرن الماضي.

إنّ هبوط القرصنة يتضح منذ العقد الأول للقرن الثامن عشر من الانخفاض الهائل للغنائم وعدد الأسرى الذي صار يتراوح ما بين ألفين وثلاثة آلاف إلا في حالات استثنائية، ففي سنة 1801م أتى القراصنة الجزائريون بأربعة غنائم، وبواحدة فقط عام 1803م[1]. وسار الأسطول في نفس الاتجاه لأنّ القرصنة الجزائريّة لم تعد تجتذب الرياس الجريئين والأكفّاء سواء من البلاد الشمالية أو غيرها. ويذهب المنور مروش إلى القول: أن القرصنة أصبحت في القرن الثامن عشر مجرد أداة دبلوماسية[2]، وبعبارة أخرى تحولت مهام البحريّة الجزائريّة إلى ضمان احترام الدول الأجنبيّة للمعاهدات التي أبرمتها مع السلطات الجزائريّة، وبذلك أصبحت القرصنة مهمة ثانوية للبحريّة الجزائريّة،

(1)عبد القادر، جغلول: المرجع السابق، ص 43.

(2) المرجع السابق، ص 379.

لقد كانت التجاوزات الفردية بمبادرة بعض القراصنة لم تنته تماما وإنما أصبحت نادرة، وتعاقب بقسوة وأحيانا بالإعدام.

هذا التحوّل في مهام البحريّة الجزائريّة أدى إلى ضعفها وانكماشها، مما دفع السّلطات الجزائريّة إلى انتهاج إستراتيجية جديدة تقتضي العمل على الضغط على الدول الأوربية من أجل دفعها إلى توقيع معاهدات سلم وتجارة مع الجزائر، تدفع بمقتضاها(الدول الأوربية) إتاوات وهدايا لحكومة الداي مقابل حريّة الملاحة والتجارة مع الجزائر[1]. لقد وجدت السلطات الجزائريّة في دفع الدول الأوربيّة الإتاوات مقابل معاهدات سلام وتجارة مصدرا ثابتا وآمنا من الدخل المالي للخزينة[2] بعد جفاف القرصنة في القرن الثامن عشر، وبذلك بدأت الجزائر تضغط على الدول الأوربيّة عن طريق بحريتها لدفعها إلى توقيع معاهدات سلام معها حتى ولو تطلب ذلك إلى الارتباط مع كل الدول الأوربية وحتى التجارية منها، فبنهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أصبحت الجزائر تربطها مع معظم الدول الأوربيّة معاهدات سلم وتجارة حتى مع إسبانيا[3] وبعض الدويلات الإيطالية[4]. وبذلك أصبحت العلاقات الدبلوماسية الجزائريّة مع مختلف الدول

(1) ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 45.

(2) إنّ القوّة البحريّة التي تملكها الجزائر تبدو ضئيلة إذا اعتبرنا أنّها كانت أداة فعّالة لفرض ضرائب على جميع الدول المسيحيّة المهمة. أنظر:

اروين، راي: المرجع السابق، ص 26.

(3) في سنة 1790م، تمكنت إسبانيا من المحافظة على علاقات السلام مع الجزائر خلال الفترة بين (1785–1790م)، بفضل دفعها مبلغ أربعة ملايين ونصف مليون دولار. وفي سنة 1802م فرض الجزائريون على إسبانيا الخنوع لشروطهم التالية: أن تدفع مبلغ ستين ألف دولار مباشرة للداي، أن تبعث مع كل قنصل جديد تعتمده بهدايا تبلغ قيمتها 42 ألف دولار، أن تتنازل للجزائر عن ثلاث سفن حربية وعن سفينة للشحن، وأن تقدّم لوزارة الداي ثلاثين ألف دولار. أنظر:

اروين، راي: نفس المرجع، ص 33.

علي، تابليت: العلاقات الجزائرية الأمريكية (1776–1830)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، (2006–2007م)، ص 82.

(4) يحي، بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر،ط 2 ،ج2، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر،2007م، ص 43.

الأوربيّة تدرّ عليها لأموال التي كانت تعوّض المداخيل التي تجنيها من عمليات القرصنة، ففي سنة 1786م كتب أحد الأسرى الأمريكيين إلى طوماس جيفرسون مايلي: " أن الإنكليز، والفرنسيون، والهولنديون، والدانمركيون والسويديون، ويمكن القول أن كل الأمم تدفع لهم الجزية (أي للجزائريون)"[1].

وفي نفس الوقت تقريبا أشار أمريكي في الجزائر أنه برغم من تباهي الإنكليز بحصولها على أفضل معاهدة مع الجزائريين أكثر من أي دولة أخرى، فإنه مع ذلك، دفعت للجزائر هدايا تفوق قيمتها 28 ألف جنيه إسترليني سنة 1759م[2]

وبناء على ما أورده قنصل الولايات المتحدة الأمريكيّة ويليام شالر عام 1822م، فإن الحكومة الفرنسيّة قدمت للدولة الجزائريّة ثلاثين ألف فرنك مقابل احتكارها لصيد المرجان في خليج عنابة، كما دفع ملك نابولي جزية سنوية بحوالي أربع وعشرين ألف فرنك، وملك السويد أربع و عشرين ألف فرنك، وملك الدنمرك أربع و عشرين ألف فرنك، وأخيرا ملك البرتغال أربع و عشرين ألف فرنك[3]، ويؤكد بعضهم أن كلا من البرتغال، والدنمرك، ومملكة نابولي، والسويد، قدمت كلها ضريبة سنوية إلى الجزائر قدرها ستة و ثلاثين ألف فرنك، في عام 1825م، أما البندقية فقد وافقت في إحدى المناسبات على أن يدفعوا للجزائر خمسين ألف دوقة دفعة واحدة وخمسة آلاف دوقة كل سنة بعد ذلك، وذلك مقابل حصولها على امتياز يسمح لهم بتسيير خمس عشرة سفينة تجارية في البحر الأبيض المتوسط[4]. ويذكر صاحب تحفة الزائر أن إنكلترا كانت تدفع

---

(1) علي، تابليت: نفس المرجع، ص (81 ،82)

(2) نفسه ص 82.

(3) وليام، شلر: مذاكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816/ 1824، تعريب وتعليق، إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر، والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 60.

(4) اروين، راي: المرجع السابق، ص 34. أنظر أيضا:
علي، تابليت: المرجع السابق، ص 82.

ست مئة ليرة إنكليزية، وأن فرنسا تقدم هدايا ثمنية كلّما تغيّر قنصلها، وأن الدّنمارك تشتري أمنها بآلات وأدوات حربية قيمتها أربعة آلاف ريال سنيكوم.....الخ[1].

وقد كانت الحكومة الفرنسية تقدّم إلى الجزائر الهدايا في كلّ مناسبة وذلك بواسطة قنصلها العام بها.

فكانت قيمة هذه الهدايا تفوق أحيانا ما تحصل عليه الجزائر من السفن الفرنسية عن طريق مهاجمتها والتعرض لها في البحر. وكان على الدول الأوربيّة أن تقدّم الهدايا في كل مرة غيرت قنصلها، ولما كانت العوائد تمثّل دخلا كبيرا لخزينة الدولة الجزائريّة، فقد كانت الجزائر تطالب بتبديل القناصل الأوربيين، وعدم بقائهم في مراكز عملهم مدّة طويلة لكي يتجدد دخلها بذلك، فكانت الدول الأوربيّة ملزمة بتغيير قناصلها كل عام أو عامين باستثناء إنكلترا وفرنسا[2].

أمّا في الداخل فقد اتّجه اهتمام التّجار الذين كانوا في الماضي يستثمرون أموالهم في شراء أسهم من ملكية سفن القرصنة، نحو أفاق جديدة مربحة أكثر، وهي التجارة الخارجية المتمحورة حول تصدير المواد الزراعيّة واستيراد منتجات التّرف وغيرها[3]. ووجدت السلطات الجزائريّة في هذا القطاع الجديد منبعا هاما يدرّ مداخيل عمومية وخاصة[4]، إلى درجة أن أصبح المؤرّخون يطلقون على القرن الثامن عشر بقرن التحوّل من القرصنة إلى القمح[5]، وبذلك ارتبطت الجزائر بعلاقات تجارية مع معظم الدول الأوربيّة خلال هذه المرحلة[6]، فإسبانيا نالت بفضل الصلح المبرم مع الجزائر في سنة

(1) محمد، زروال: المرجع السابق، ص 20.

(2) نفسه، ص 22.

(3) لأخذ نظرة على التجارة البحرية للجزائر في القرن الثامن عشر أنظر:

- Mathiex, jean : " sur la marine marchande , Barbaresque au XVIII^{e} siecle " Annales économies sociétés civilisations, 1988, Volume 13, Numéro 1.

(4) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 374.

(5) Ali, Ismet Touati : Le Commerce Du Blé entre la Régence d’Alger et la France de (1559à 1830), Thèse pour obtenir le garde de Docteur, Université Sorbonne , 2009, P 2.

(6) حول حجم التجارة الجزائرية الخارجية مع أوربا، أنظر: